سامي الجندي

أحداث في المنفى

احداث في المنفى

سامي الجندي

أحداث في المنفى

مقدمة

أنا مقهى دمشقي احمله معي انى طوّحت بي ريح الرحيل ، همسه واطلاله الساخر على الطريق اصبحا من تقاليد منفاي . طباعي من طبعه . اجلس فأسترخي وأحشد حوالي الكراسي حتى يأتي النادل فينبهني الى اني تجاوزت حدودي . تعلمت فيه النقد السياسي وحرارة العواطف ..

أنا بعيد عنه ولكنه يحمي ضلوعي والحشا من ان تقفر من الحنين .

همسه في اذني دائما . ما الاخبار ؟ ثم تعليق ساخر ينتقل من فم الى فم ومن مقهى الى مقهى حتى يغدو شعارا سياسيا .

عندما اعتزلت السياسة حرت الى اية عشيرة انتسب . المقهى الدمشقي دون سياسة يمسي عظمة مجدورة خرجت من القبر .

راجعني الحنين الى القرية وبحثت في جذور ذكرياتي . كانت غنية بالمأساة اجزلت علي عطاياها فلونت رؤاي بقوس قزح قاتم السريرة ، اوراقي مترعة بحكاياتها . ومن يدري فقد يجيء الزمن الذي اروي فيه كل هذه الحكايات .

كنت لا أنام الا على قصة حتى اذا ملّت أمي ابتدعت قصة ارويها لنفسي . زادي منها كبير يكفيني سنين طويلة غير ان سخر المقهى الدمشقي ظل يراودني عن نفسي

فأرود معه الاخبار ، مستقبل السياسة وماضيها واقنع بالصمت ..

كان الحوار الداخلي قاسيا : الوطن يتخبط على جرف هاوية فلا ينبس احد بكلمة كأنما اختار العرب أن يشتركوا جميعا في مهزلة موتٍ عبد .

كانت حكايات القرية تمرع بالفروسية والمغامرة : عنترة وسندباد ... المطلق المجهول واختيار الخطر ...

كان علي أن اختار بين الصمت والرحيل ، ان انسجم مع ايماني بالكلمة أو أن أغدو عظمة مجدورة خرجت من القبر ورفضت الموت .

ما كنت أعلم آنئذ ان الرفض يكنّ لي كل ما لقيت ، ولأقلها دون رياء .

بات من تقاليد الفكر في هذا العصر ان ينتسب الكاتب . انتسب ناظم حكمت الى الشرق فأغدق عليه غار المجد ، وباسترناك — شاء أم أبى — الى الغرب فمكّن له من الشهرة ما منحه العزاء .

الى من ينتسب الكاتب العربي ؟ كنت في رحيلي بدويًّا ضلّ مضارب قبيلته ، يطوف في الصحراء ، يكاد يقتله الجوع والظمأ .. لم أجد احدا من عشيرتي ، والقتلة ورائي انى حللت .

لو لم تمكن لي تونس من العمل في عيادة وجدت فيها نفس الذين كنت أعالجهم في قريتي يأتون اليّ بسطاء طيبي القلب يمنحون كل صداقتهم ، كل حرارة عواطفهم ، ما كان يحدث لي ؟

سنتان والموت مني قاب قوسين او ادنى. لم أحسب له حسابا لا عن شجاعة ولا تهورا وانما كنت مخدّر الاعصاب . احساساتي احساسات منوّم ، كأني من عالم آخر . كنت شديد الخوف من

ان أغدو قاتلا . ان اقتل قبل أن اقتل .

كيف يحول الفنان اذا وجد نفسه امام جثة عند قدمه ... هل يظل طاهرا وبريئا ، مشرع الروح لرؤيا عظيمة ؟

انا منذ سنين احس اني واقف امام جثة . قـد تكون جثـة وطني . غير اني لست قاتلا . كان ذلك دائما عزائي ... ظننت عندما اصبحت سياسيا اني اعطيها بعضا من دمي لعل الجثة تنفض عنها في صحوة جبار غبار الموت ... لم يكن دمي غزيرا . كان لا بد من موجة عارمة من النجيع تمرع في عروق شهيد او صوفي عظيـم .

أيقنت أني لا امنح كما حلمت بأن امنح .. ولكني مؤمـن بالجثة ايمان منتقذ مهما قصرت باعي . ثم وجدت بعد تجربة طويلة مرة وبعد ان ولغ في دمها كثيرون ان على الجثة نفسها ان تختـار بين الموت والحياة ، ان تؤمن بالحياة ايمانهـا بالموت ، ان تدرك موتها وهيهات ان تحيا ما لم تدرك الموت .

هنا يكمـن سر الكلمة التي تحدق بالمصير دون وجل . هنا يكمن سر الصمت الذي يمور في الاعماق حتى يغدو حنقا فغضبا فرفضا ، فعصيانا .

الى مـن انتسب بعد ان خلفت ورائي السياسة ؟ الى موت الجثة ام الى حياتها ؟

أنا لست مـن هذا ولا مـن ذاك . أنا رفض للمـوت فقط وانفصال مطلق عـن كل طقوسـه الجنائزية ، شاهـد على هذه المرحلة رغم أني أرفض الانتساب اليها : ذلـك موقف فنـان ، لا موقف سياسي .

قد يكون السياسي اكثر اناة وصبرا ، قد يكون أنجع مـن

الفنان في حياة البشر ولكنه لا بد له من ان يبدأ بوعي فنان فيرى اعماق المأساة ويحترق بنارها ، ومأساة العرب أفدح مما يظن المتفائلون .

ليس التخلف تقنيا فقط كما يذهب كثيرون . انه حضاري بكل ما تعنيه هذه الكلمة وأول ما تعنيه عندي مناقب وابداعا . فالمتخلف لا يسمو الى التضحية بمعناها العظيم لان الرؤيا عنده تقصّر عن المثل الاعلى . الشواهد التي تناقض قولي كثيرة ولكنها فردية ... عصيان عصاة . نذر بآت عظيم ، شرارات تنذر بالوهج.

ان المثل الاعلى هو تألق حضاري ، صوفيّ الملامح ، تعبير عن طاقة انسانية كبرى .

ليس التخلف العربي تخلفا تقنيا ، انه ظاهرة تعبر عن اننا ما تجاوزنا عصور الانحطاط ، رغم اننا نهدنا الى طرق جديدة ، قد تكون بداية عظيمة .

قد تقول لي ايها القارىء انني يائس وأن تجربتي هي مصدر يأسي .

نعم أنا يائس من أعماقي ... كلمة اليأس تعني عندي غير ما تعنيه عند الأخرين . قد تعني الرفض ، قد تعني الغضب وقد تعني العصيان ... واخال انها تعنيها جميعا . هو يأس ينسف ، كل ما علق حياتنا من عصور الانهيار ، يمسح كل شيء ليفسح للحياة ان تبني من جديد على دروبها الجديدة .

قد تكون تجربتي مصدر يأسي ، الاجهاد والارق والاحزان والمقبل الآتي الذي أجهل ما يخبىء لي . أنا سعيد بالاجهاد والارق ... سعيد حتى الالق ولكني تعبت ، تعبت من كل شيء ووهن الجسد ولكني ما زلت قادرا على النشيد ، حكايات كثيرة

اعدك بها . رغم أني تعبت ، رغم اني احب الصمت والهمس كمقهى دمشقي ... نعم تعبت . دعني أطبق جفني . فالكلمات تجمجم في أعماقي ، لا طاقة لي على ردها ...

أعرف ان الطريق التي اخترت ــ رغما عني ــ شاقة وصعبة لا تخبىء لي غير الاسى والحزن والمشقة . وماذا افعل ؟ فالفنان لا يختار سبله . هي التي تختاره وقد تكون فوق ذلك دون جدوى .

**

دعني اطبق جفني . كأني في مقهى دمشقي . كأن النادل يضع الطاولة امامي . كأني حدفت الزهر : « ايكي بير »

سامي

مدام لاي

ـ نعم يا مدام لاي ...

وضعت قبضتيها على خاصرتيها وأقعت على كرسيها فحدقت الى وجهي مهددة كضابط نازي اتهم باليهودية والشرر يتطاير من عينيها الصفراوين .

ـ قلت لك هيلين ...

وضربت على الطاولة : هيلين ... ألم تفهم ؟ كفاك تهذيبا لا معنى له ، بتنا صديقين يا احمد بيي ...

كان اسمي « احمد » في « كوش أداسي » ... بدلت اسمي فيها ، خلعت جلدي ، تقمصت شخصية لا أعرفها ... كان رفاقي في الحي عندما يمازحونني يدعونني « أحمد » وأردت ان أضحك من نفسي مرة اخرى فاتقيت لقب الضحك الطفل والقفز على التلال. كنت أسخر من هذا التائه على الدروب البعيدة ، يتكلم بالاشارة كي يسعف جهله بالتركية .

اشتريت كتبا تعلمها السهلة ... كنت سائحا من نوع آخر ، يتلفت يمنة ويسرة لا ليستمتع بغروب الشمس وألوانه العجيبة في تلك الارض ولا بشروقها ، وانما خشية ان يفاجئني ، على أحد منعطفات الازقة الضيقة ، أحد القتلة الذين يجوبون النواحي بحثا عني .

حفظت كلمات كثيرة غير ان التعبير كان يخطئني . ذهني كان مشغولا بأشيـاء اخرى كثيرة ... كنت على خشبة مسرح اضـع برقعا على وجهي ، امثل دورا يقيني الموت ... تركت اسمي على ارض الوطـن ، يطفر على روابيه ، يشم عبير زهوره كفتى خصب الجنـون .

بدلت اسمي مرات كثيرة . لو ناداني احد في الطريق بأحد اسمائي العشرة لأستجبـت ولو نادانـي باسمي الحقيقـي لتغافلت وبدلت الطريق . انكرته لانه يعني عندي الموت . تركته هناك . انا أحمد عند مدام « لاي » .

ــ العنب فاخر ورخيص في « كوش اداسي » يا هيلين .

وشددت على هيلين فابتسمت ثم قالت :

ــ نعم يا احمد بيي ، انه فاخر ورخيص ، هنا وفي ازمير ، في كارشياكا ، في كل الشطآن الذهبية . رخيص كالانسان .

ــ انصحك أن تأكلي منه كثيرا يا مدام « لاي » .

ــ يوك ، يوك ... قلت لك اسمي هيلين ...

لم افهم ما تعني من (يوك) . اترفض أكل العنب . أم تلح في ان ادعوها باسمها الصغير .

تعرف مدام « لاي » من التركية كلمات قليلة تلقيها سريعا في وجه محدثها فيظن انها تتقنها ، تمزجها بانكليزية ركيكة ويتغضـن وجهها وتلمع عيناها وتتحرك يـداها في سرعة خيالية فتعتقد انـك فهمـت .

ــ ولكن المعلبات واللحوم الجافة مضرة اذا أكلت منها دائما.

ــ يوك ... قالتها زامة شفتيها ويديها علـى ركبتيها تضغط

بهما كأنها تولول احتجاجا ... قل وزنـي عشرة كيلو غـرامات في شهور خمسة .

كم كان وزنها اذن ؟ انتصبت مودعة ، اسطوانية الشكل كأن رأسها التصق بجسدها حتى ليبدو ركب عليه تركيبا .

ــ اجلسي يا مدام لاي ... ادعوك للغداء . انت طيبة يا مدام ليـي .

ــ يوك ، يوك ، ما دمت لا تدعوني هيلين .

ــ اجلسي يا هيلين ... لا بد من دعوتك . انت لطيفة طيبـة القلب يـا هيلين .

لم افهم نظرة النادل اليهـا والي . لمحت في عينه الاستغراب والسخر . خالني اخا غزل . قالت له :

ــ دولمة وكباب .

ــ أرى أنك تحبين الطعام الشرقي يا مدام لاي .

ــ يوك ... هيلين أو اذهب دون تناول الطعام .

ــ ماذا تشربين يا هيلين ؟

انفرجت اساريرها والقت بظهرها على مسند الكرسي وتراخت يداها على الجانبين ثم قالت ظافرة مطمئنة : ادعني دائما كذلك .. هيلين ، دائما هيلين . صرت عندي صديقا ولا كالأصدقاء .

ــ ماذا تشربين ؟

ــ ماء ... أنا لا اشرب الا الماء .

ــ لا تشربين الا الماء ؟ ذلك شيء حسن .

قلت في نفسي : يا لها قديسة .

ــ يوك ... أشرب قليلا بالبيت ، قليلا جدا فالشراب غال في المطعم ... لا يبدو عليك انك من اصحاب الثراء ... امتنعت منذ مدة عن الكحول . أريــد ان ينقص وزني بضــعة كيلو غرامات اخرى ... ابدو الآن اكبر من عمري . لن اقول لك كم سنة ، يوك لن أقول . هل تستطيع ان تحزر ؟

ــ حوالى الاربعين .

ــ أوه يوك ، اكثر قليلا ... شيطان .

لا أظنه يقل عــن الخامسة والخمسين . اغضوضنت بشرة جسدها كقشرة شجرة عتيقة . سألتني : ماذا تعمل هنا ؟.. كلما رأتني تسألني ما اعمل . احيانا تسألني مرتين في جلسة واحدة .

ــ لا اعمل شيئا على التحديد ... أقرأ ، أكتب .

ــ ما هي مهنتك ؟

ــ كاتب ...

ــ شيء عظيم . ماذا تكتب ؟

ــ قصاص ...

ــ أوه عظيم ، يجب ان تكتب قصتي . كان زوجي كاتبا .

ــ قلت لي انه كان جنرالا ..

ــ جنرالا وكاتبا . لم يكن عسكريا ، جنرالا احتياطيا .

كان زوج مدام « لاي » كل شيء ، تختلف مهنته مع من تحدث . قالت لي يوم لقيتها ونحــن في الطريق الــى « بوساجي

بنسيون » انه كان عالما كبيرا ولم تحدد اختصاصه . أضافت : كان عريض المنكبين طويل القامة . تبدو أنت الى جانبه قصيرا كطفل .

كنت اتمهل وهي تلهث على الطريق الصاعدة وما تنفك تحدثني عن فضائل زوجها : اجهل وجه الشبه بينكما ... كانت عيناه كبيرتين ، تشبهان عينيك على صغرهما : كان أشقر نقي البشرة وانت اميل للسمار ، كان يسير منتصب القامة لا يترنح مثلك في مشيته . ادري انك متعب الرأس كثير الافكار ... كان يمشي شامخ الانف ، متكبر الخطر كجبار ، ترتج الارض تحت قدمه ، رغم انه كان رقيقا وحنونا . أوه لقد وجدتها ، (أوت) ، (أوت أفندم) لقد وجدتها . يشبهك في رقته وحنانه ، انت كبير القلب يا أحمد بيي ، حساس لأنك حزين ... قل لي يا أحمد بيي : ألست عاشقا ؟

ـ حياتي عشق يا هيلين ... أحب حتى يأكل الدود عظمي ، أحب كثيرا يا هيلين ...

ـ ما اسعد من تحب يا أحمد بيي لانك تحب من اعماقك ..

ـ بل ما اشقاهم يا هيلين ، أحبهم لانهم بؤساء ...

ـ مثلك كان زوجي يا أحمد بيي عاطفيا ومحبا ...

ـ كان يحبك كثيرا ... أليس كذلك ؟

لكزتني كأنها تدفعني الى الجانب الآخر من الطريق قائلة :

ـ اوه : كثيرا ، كثيرا ... نعم كثيرا ...

ولمحت في عينيها عودة الى ما وراء الشعر الابيض المصبوغ، الى الصبا العابث كأن طفلا أطل من البؤبؤ الذي يعاند الشيخوخة.

وقفت واستوقفتني . فحديثها الان لا يحتمل اللهاث : كان يحبني كثيرا وكنت أحبه اكثــر ... أوه ما زلت أحبــه ، خمســة وعشرون عاما ، لم اصدق انه مات ...

والتفتت الى الوراء . كــان البحــر ازرق كزمردة ، صافيا ساهما ، عميقا كسر ، بليدا كالصدفة .

ــ كان ذلك في أيام برلين الاخيرة ، حينما انصب عليهــا حقد البشرية جمعاء . حقد الله ايضا ... الارض والسماء ... مــا كان اجمل برلين : مدينة اللعنة . برلين الحديثة هجــين اذا قيست بتلك . كنا في أتون الجــدران التي تهدمها القنابــل ، تكوي اذا لامستها يد والارض ترسل بخارا محرقا . كــأن بركانا يسكــن أحشاءهــا ...

اصفر وجه مدام لاي وارتعشت شفتاها وانكمش جسدها كله تهيمن عليه رعدة مخيفة ... لم يخف علي انها كانت تهذي .

ــ لا اصدق ان الطيران والمدافع كانت تقــذف وحــدها القنابل ، لا اصدق انها قادرة على كل هــذه النيران . لا بــد ان السماء كانت تقذف حمما . هل قرأت وصف الجحيــم في الكتب المقدسة . لقد عشنــا الجحيم اياما طويلة ... أحلــم احيانا انــي ذهبت فيمن ذهب مع برلين وان التي تكلمك امرأة اخــرى ... اقترب مني الموت حتى لكدت ألمسه باصابعي . كان مخيفا ، عيناه من لهب ... عندما أطبق عيني بعد خمس وعشريــن سنة لا ارى سوى اللهب . أراه في كل مكان ، داكن الحمرة يتفجر ابيض الى ازرق ثم يحمر داكنا ، دخانيا ... أوه اقترب مني ... يا لي مــن مغفلة .! لقد مت منذئذ . لست هيلين لاي الحقيقية . انا شيء آخر لو رأيتني يا احمد بيي ... كنت جميلة رائعة كلوحة فنان ..

وامتلأت عيناها بالدموع فأخرجت منديلا صغيرا ومسحت عينيها وقعدت على جدار واطىء يحيط بجنينة حفلت بالورود .

ـ كنت احب الورد كثيرا ... اكرهه ... لماذا يكره الانسان الورد ؟. دوت صفارات الانذار فأيقظني زوجي ودلفنا سريعا ... كنت استيقظ عادة قبله . ذلك اليوم كانت في رغبة خفية للزوال . قلت له « دعني نائمة » . كنت ثقيلة الجنبين . جرني من فراشي ودلفنا سريعا الى المخبأ وعند بابه ذكرت معطف الفرو الذي قدمه لي هدية العرس ودبوس الماس الذي ورثته عن أمي فجدتي الى اجيال بعيدة بعيدة ... حدق جيدا الى وجهي ، أنت كاتب ألا ترى في سيمائي أني من عائلة عريقة . انا من بروسيا الشرقية من شرقي الاودريه . بلدي الآن بولوني ... ذهبت الى السفارة البولونية (ضربت على فخذيها وضحكت) سألت عن أهلي . لم يجيبوني . طلبت العودة قال المسؤول : الشرط ان اتعلم لسانهم ونصحني ألا افعل لاني لو ذهبت لما وجدت أحدا ... لم أفهم ما يعني . كيف لا أجد أحدا . الى أين رحلوا ؟ لا أعني أبي وأمي ، فقد يكونان ماتا ولكن الآخرين : أخوتي ، ابناء عمي ، بنات عمي ... نعم أنا من عائلة عريقة لم يبق منها أحد ... هكذا قالوا لي ولو بقي أحد لما استطعت التعرف عليه ... انهم مجانين أتعرف عليهم ولو كانوا وراء ألف جدار ، أشم رائحتهم عبر المسافات التي تفصلني عنهم ... أنا وحيدة يا أحمد بيي . ينفر مني الناس لاني ثرثارة وثقيلة الظل ... لا استطيع ان اسكت ، أجن اذا سكت ، أدرك آنئذ وحدتي .. اضحكتني عندما قلت أنك وحيد . أنت لا تقدر ان تكون وحيدا ... لك قراؤك الذين يملأون عقلك وصمتك، تفكر بهم وبما تمنحهم . اجهل لم أنت هنا ولكنك قد تعود ذات يوم فتصبح مرة اخرى واحدا من الملايين الذين يعرفونك وتعرفهم.

انا وحيدة يا احمد بيي افترض ان احبائي ذهبوا في رحلة

بعيـدة . ربمـا الى القمر . كـان ذويّ يعيشون في الاحـلام وحب المغامرة ... لا بد انهم رحلوا في مغامرة جنونية الى حيث لا يعلم احد .

آوه لقد نسيت سياق القصة : كانت لدى اهلي حلى قديمة تتوارثها كشجرة نسب . كان لدي طوق ثمين يتدلى منه اطار فيه صورة ابي وأمي عند الزفاف وماسة كبيرة تضيء اذا اظلم الليل ...كأنها ما زالت بين يدي . أغمض عيني فأراها .

هممت بالعودة كي أجيء بالمعطف والحلى ولكـن زوجـي شدني واغلق الباب وانفجر البيت جميعا . سقطت عليه قنبلة . لم يبق منه سوى الملجأ . آوه ! احمد بيي كأنني اسمع الآن الانفجار ... فقدت تلك الساعة كل ماضيّ ، كل وطني . بت بلا وطن . ونظرت الى وجه زوجي . كان هادئا رزينا كأن شيئا لم يحدث . وانتهت الغارة فنمنا في الملجأ .

في الصباح ذهب كالعادة الى عمله ... بعد قليل دوت صفارات الانذار وجاء وقت الغداء ... هيأت شيئا طيبا مما كان لـدي في الملجأ . لكنّ حبيبي لم يعد . انتهت الغارة وجلست انتظر علـى الطاولة ، لكـن حبيبي لم يأكل معي ذلك اليوم ... ظللت انتظـر وانظر للطعام حتى دوت الصفارة مرة اخرى. كنت وحيدة في الملجأ فأكلت طعامي وطعامه في نهم موتى ... كانت القنابل تهدر كالقيامة وأنا آكل ، آكل وأشرب النبيذ الذي يحب هو ... كان يحب نبيذ الراين ويود ان اشرب معه غير اني كنت امتنع . شربت كل نبيذه. وانتهت الغارة غير ان حبيبي لم يعد . قلت لعله تأخر ، لعله يجيء واعددت له الطعام والنبيذ وأكلت وشربت وحدي . لم يعد ، لن يعود حبيبي ، رحل ايضا الى القمر ...

لا أعرف كم يوما قضيت أعد له الطعام والنبيذ وآكل وحدي.

وانتهى كل شيء . توقفت الانفجارات . عندما خرجت من الملجأ كان مضى عدة ايام ، لا اعرف بالضبط ، على استسلام برلين ... خرجت من الملجأ متخمة سكرى . ذهبت الى القيادة ... لم تكن هنالك قيادة ، لم يكن هنالك احد .. رجعت الى الملجأ وقبعت فيه وحيدة آكل واشرب ، اعد له الطعام وهو لا يجيء حتى انتهى ما لدي ... قريبا من الباب كان هنالك برميل قمامة . لولاه مت جوعا .

ـ عشت في الملجأ اياما طويلة وحيدة ، وحيدة كما تراني اليوم ...

وألم بها فجأة عارض من الضحك ...

ـ تزعم انك وحيد .. انت تضحكني يا أحمد .. لا يقدر الرجل ان يكون وحيدا ... على عطفة أي شارع تستطيع ان تجد امرأة ما فيكون لك منها ولد وتستمر حياتك ، وتستمر الحياة ... أما أنا ... أوه احمد بيي هل تدرك وحدتي ؟.

ـ ثقي انني وحيد مثلك يا مدام لاي

ـ قلت لك هيلين ... انك تثيرني .

كأني ارجعتها الى « كوش اداسي » فأضافت :

ـ اوه كم أنا ثرثارة . كدت انسى انك لا تستطيع المبيت اليوم في الفندق ... هيا هيا ... وصعدنا الى «بوساجي بانسيون» اخذت تلهث مدام لاي . تقوّس ظهرها فجأة كأنها غفلت عن رغبتها في الظهور بمظهر الصبايا ، كأنها تحمل على ظهرها رماد برلين .

ما أشبه مدام لاي بقطتنا التي جاء بها اخي الصغير من الطريق : نفس النظرة ، نفس العين التي تحملق كمشدوه اذا جلسنا

للطعام ، لا عــن جوع وانسا في تأمل غبي ... تتكلم مدام لاي كأنها تسوء مثلها .

لما رأيتها في المكتب الصغير النظيف القائم حد مرفأ « كوش اداسي » كانت امام الآلة الكاتبة تنظر الى مسودة رسالة وتضرب كلمة أو كلمتين ثم ترفع النظارات عن عينيها وتتجه الى البحـــر فترمقه ثم تخبط بيدها على الطاولة كأنها لا تريـــد ان تستأثـــر الامواج بعقلها فتنسيها المسودة الثقيلة . لم اشك في ان مدام لاي كسول كقطتنـــا تحدق الى الكلمات كما تحدق تلك ــ وهــي قابعة في النافذة ــ الى قطعة لحم .

كنت ضالا في لؤلؤة بحر ايجة « كوش اداسي » أبحث عن مأوى ، يشغلني المبيت عن التأمل طويـــلا في الهضـــاب الغبيـــة الخضراء والبحر ذي اللازورد اللامع. في كل الشواطىء التي رأيت لم ار بحرا يغنج مثله في وجه الشمس كثعبان يتمرغ على عشب ربيعي . ثم تشغلني الهضاب والتأمل عما انا فيه .

الفنادق لا تأتلف مع وضعي . لو ان لي خيمة صغيرة احملها على ظهري ! لو اني ارمي تلك الكتب التي تملأ محفظتين وتجعلني اسير الفندق والنادل . لو اني ارميها في البحر ، ادعها له يقرأ ما شاء . كانت اذن تتغير طبيعته ويصبح مثلي كثير الهموم، تفارقه فتوته فيشيخ موجه كما شاخت خطاي . تلك الكتب اللئيمـــة لو اني أذروها ورقة ورقة على اليم ، كنت نمت اليـــوم في العـــراء ، فالهواء في تلك الايام رقيق وعليل في « كوش اداسي » .

قال لي مديـــر الفندق : لا مكان هنا غدا . تجيئنا مجموعة من السواح . اتفقنا على ان تقضي هنا اسبوعا فقط .

كان نزله كالمحطة يطرقه اكثر القادمين الـــى تركيا . ملـــل

واجناس مختلفة تقيم يوما او بعض يوم . ثم الى وجهة اخرى . تركت الفندق واتجهت الى القرية . كانت الشمس كجمرة . مرت بي سيارة . اشرت اليها فلم تقف . اختلف الامر عن البارحة . كانت السيارات تعرض خدمتها دون ان نشير لان ليزيت كانت معنا .

عزمنا على أن نذهب الى القرية سيرا على الاقدام . كان ذلك اقتراحي لعلّي اعيد المياه الى مجاريها بين ليزيت وجان بول. كانت تريد البقاء في توسان اوتيل لانها تعشق الشمس والبحر ولان جسدها لم يسمرّ بعد ، تأبى ان تعود الى باريس بيضاء كما جاءت منها . كانت تود ان تغار منها رفيقاتها وجان بول يلح في الذهاب الى قونية لزيارة قبر مولانا جلال الدين . كان مولعا به ، كلما سمع كلمة عنه فتح اذنيه يستقصي معناها ويتعمق بها ثم يهز رأسه معجبا . اذا وجد بطاقة بريدية عليها صورته اشترى منها عشرا فكتب عليها رسائل الى اصدقائه . كان يراه امام الصوفيين في التاريخ ، اماما له . كان يعد كتابا عن الجمال عند الصوفيين يبدأه بمولانا وينهيه بجلال الدين .

كنت في مقصف الفندق المطل على البحر . سمعني جان بول أتحدث بالفرنسية مع النادل ومر قرب الطاولة وكأنه تطلع الى ما اكتب : من اليمين الى اليسار . كنت الوحيد الذي يكتب في الفندق وفوق ذلك من اليمين الى اليسار .

سألني : ألست تركيا ؟

ـ لا ...

ـ من اي بلد انت ؟

ـ من الشرق ... بيني وبين بلدي هذا البحر فقط .

أراك وحيدا ...

ـ حتى الوحشة ... وضحكت .

ـ ادعوك لتناول كأس معنا .

انتقلت الى طاولته وقدمت نفسي . وصل بنا الحديث الـى رابعة والحلاج وجلال الدين .

قلت : سيـد الدوار .

قال : مـا تعنـي ؟

ـ كلما فكرت فـيه تداعت صورته وصورة سيزيف يدفع الصخرة الى الجبل حتى اذا اقترب من القمة تدحرجت الصخرة الى الوادي فنزل اليـها كي يعاود معها الصعود ، كأنهمـا توأمان لا يحقق المعجزة دونها. أتساءل : ألم يخطر ببال سيزيف ان ينفصل عن صخرته في احدى سورات الغضب ؟ لا بد أنه فعل في ذات غفلة عـن نفسه ... ماذا حدث له آنئذ في القمة حـين وصلهـا خفيفا من اثقال الصخور ؟ انه السر الذي أتوقف عنده والذي حل لي رموزه جلال الديـن .

عندما رأى ... دار على نفسه يحسل خشبة حتى سقط مغشيا عليـه فابتدع الدوار شريعة له ... أتساءل : عندما رأى النور دار الى اليمين أم الى اليسار ؟ لا أعلم ولكني اظن انه فيما بعد كـان يدور في وجهة معاكسة لعله يصل الى النقطة الـتي رأى فيهـا ومنذئذ تدور شيعية كذلك في رقصها الديني لعل أصيلا ، محترق الاشواق يرى .

أخال ان سيزيف عندما وصل الى القمة هم بالنزول علـى المنحدر الآخر، منحدر الاسرار كي يكتشف الكل فدلف مشدوها حتى اذا وصل الى الوادي وجد الصخرة بانتظاره فدفعها الى اعلى مرة اخرى .

ــ ماذا تعني ؟

أعني ان جلال الدين لم يتمل من روعة لحظته ، لم يدركها فعاود البحث عنها رغم انها ملأته بروح جديدة هي روح المشوقين.

كان جان بول حائرا حيرتي بالصوفيين يرى في نزعة الجمال شقاءهم وأرى في شقائهم جنوحا للجمال : القلق الحزين ، البحث الذي لم يجد ، الكفر الخائف الذي شدهه الايمان، الكفر الخائف من كفره ، المتسلم للايمـان .

قال جان بول : أرى عكس ما ترى ، انها يقظة الروح على رؤيا الانوار .

ــ نعم بعد ان تموت في نفوسهـم حقائـق الدنيـا جميعا ووقائعها . كل الاشيـاء تصبح عندهم عدما قبل ان تحين اليقظة على الكنه فيحول العدم ، عدما حيا ... العدم الحي هو حقيقتهم الوحيدة ، الخالدة الازلية .

ــ ذلك عندي هو الجمـال ...

ــ وعندي هو اليأس .

ــ اليأس ؟

ــ نعم من وقائع العالم وصوره ... عندما يموت كل شيء عند الانسان يولد فيه نهم غبي للحيـاة ، يحبها ويـراها فانية لا تستأهل الحب ، يتعلق بها وهي عنده لا شيء ، يتحرق حنانا الى ما لا يدرك ، يظن انه يراه ، يكاد يلمسه ، ينهـد الـى اللقيـاء ويتعثر على طريقها . يرنو اليها ، يكاد يراها فلا يراها . يعشقها في توتر معتوه . اذا نام حلم بها فاستيقظ لاهفا على ما يشبه البشير بها . ظل مؤرق النوم والصحو . حياته انتظار وحنين ... كل العالم

يحجبه عنها وهي في اعماق نفسه وايمانه . العالم ليس شيئا دونها وهي بعيدة قريبة ، يدنو منها فيحس انها باتت ادنى منه ، ثم الانتظار والحنين والقلق ...

نعم انه اليأس ، ينبوع الجمال ...

ــ اليأس هو ينبوع الجمال ..؟

ــ لا يرى الجمال الا بائس جرد الاشياء من كل قشورها ، وسمه عناده بالطاقة على الوصول الى الكنه . يصبح لديه كل متاع عرضا . يغدو العرض موتا فتعيش الاشياء لديه حياة اخرى خفية لا تنفذ لها الا رؤاه ، يستشف وراء العدم الحياة فيمتزج بها ويتألق يأسه فرحا ... ان رؤيا الجمال هي غبطة يائس حقيقي.

ــ اراك ترى الصوفيين من زاوية غريبة قد يكون مصدرها تجربتك ... قل شيئا عن نفسك . قالت ليزيت : ألا نستحم قليلا ؟

قال جان بول : اذهبي انت اريد ان استمع قليلا للسيد.

قلت : اذهب معها فليس عندي الكثير عن نفسي .

ــ ما هي مهنتك ..؟

ــ دون مهنة ... جوال ..

ــ سعيد من مكنته الثروة ، من التجوال الدائم ...

ــ أنا جوال دون ثروة ...

ــ لا افهم ما تعني . ولكن ماذا تعمل الآن على التحديد ؟ رأيتك تكتب . ماذا تكتب ..

كانت ليزيت تهلل تريد ان ينزل الى البحر معها والا في حرج .

ـ اكتـب رواية .

جلست ليزيت ثم قالت : اوه رواية ؟

ـ نعم رواية ...

ـ وكتبت قبلها ؟ هذا شيء مثير ..

ـ نعـم

ـ كم كتابا ؟ كم روايـة ...؟

حدثتهمـا عـن انسان آخر تكاد لا تربطني به علاقة ما . لم يكن اسمه احمد ... عن كائن غريب يطوّف في العالم بلا اهل ولا وطن . يكتب لانه بلا اهل ولا وطـن ، كي يسلو احزانه . لم تتنه قصتي عند الظهر . استمحتهما عذرا من اجل القيلولة . نظرت اليهما من غرفتي وهمـا يدلفان الى البحر وانزلقت ليزيت كسمكة براقة وقعد جان بول يقبض على الرمال ثم يفتح راحته كي تنزل منها كشلال .

عندما استفقت وجدتهما في المقصف متخاصمـين . اقترحت عليهمـا عند المساء ان نذهب الى القرية سيرا على الاقدام . كانت كل السيارات تقف كي تدعونا للركوب . قالت ليزيت : يا للشعب المضيـاف !

وتناولنا القهوة في المقهى المطل على البحر وانا أتحدث عـن كاتب ليزيت واتلفت الى المكتب النظيف الذي تضرب فيه عجوز على الآلة الكاتبة ، عجوز تشبه قطة امي .

قلت لهمـا منذ جلست وأنا أفكر في هذه المرأة .

قالت ليزيت ضاحكة : انها ألمانية . نسيت اسمهـا . غريبـة

الاطوار . يحبها الاتراك . تسرخ بوجوههم فيضحكون . يعطونها كل شيء بنصف السعر .

ثم غدنا الى الفندق . كانت ليزيت متعبـــة . وقفـــت سيارة تدعونا فركبنا . التفت الي الراكب حد السائق يسأل : ألمان ؟

قلت : لا

ـــ هل تعرفون الالمانية ؟

قلت : بلـــى .

وأخذ يحدثني بألمانية لا تقل ركاكة عن ألمانيتي :

ـــ أنا رئيس الخدم في المطعم القريب (في المطعـــم القريب خادمان فقط) . أعرف ألمانيا كلها ، دون استثناء . اشتغلت هناك . ادعوكم لكأس من البيرة فلا بد ان اتم الضيافة .

قلت : شكـــرا ...

فهم منها اني قبلت الدعوة والتفت الى السائق فقال بالتركية وعلى وجهه سيماء غرور النصر : « ما اجمل هذه المرأة . نجحت في الصيد . سترى كيف أغويها . سترى بعينيـــك ما حدثتـــك عن الاوروبيـــات ... »

واستدار نحوي فسأل : ألا تتكلمون التركية ؟

قلت : لا .

شيء غريب كأني رأيت هذا الرجل او كأني ساراه . وقفت السيارة أمام المطعم فنزل وفتح الباب قائلا : تفضلوا ...

قلت : شكرا . نريد الفندق . فندق توسان .

ـ انها دعوة . لن تدفعوا شيئا ...

ـ شكرا ...

والح فرفضنا . قال لرفيقه : « سنحاول في الغد » .

لما وصلنا قلت للسائق : « كم تريد » . طلب الاجر مضاعفا .

على مائدة العشاء قنعت ليزيت بالسفر الى قونية وفي الصباح رحـلا .

* * *

أخذت السيارات تمر بي فاشير اليها فلاتتوقف . فافتقدت ليـزيت .

مررت بليلى موتيل : اسم جميل أسود العينين . وقفت على بابه متعبا مجنونا أقبض على جمر ... جاء من قلب الصحراء يرتاح مـن عشق رمالها على شاطىء ايجه .

ـ هل عندكم مكان لي في الغد ؟

ـ يوك افندم ...

لم يعجبني آلتيش هوتيل ولا آك دنيز ولم اعجبهما . كانـا مكتظين بالنزلاء مظلمين كمزار في قرية . امـا « قسمة هوتيل » نغضضت عنه الطرف وكم استهواني . « قسـمة » الحظ بـل الصدفة .. قاعد على شبه جزيرة صغيرة ، خضرة اشجارها داكنة ، تتمايل اذا هبت الريح فتلوح نوافذه كوجه حسر النسيم حجابه ، حيية متكتمة كأن وراءها جنيات ساحرة . مالـي وله ، واتجهت ناحية المقهى . أين أنام غدا ؟

كانت القطة أمام الآلة الكاتبة ويداها على الطاولة كمـن

يرقب فريسة ، كأن وبرها منتصب كأبر . جلست اتناول فنجانا من القهوة وانظر اليها بين الفينة والفينة . سمعتها عبر الطريق الفاصل بيننا تنادي : علي بيي ... وارتفع صوتها اكثر : علي بيي ... ثم اكثر : علي بيي .

واقترب من الباب قصير ، قميء ، أحدب الصدر والظهر وقال كلمات لم اسمعها فصرخت في وجهه بالتركية والانكليزية :

ـ يجب ان تظل قريبا ... بح صوتي وأنا اناديك .

قمت فذهبت اليها . قلت بالانكليزية : صباح الخير .

ـ صباح الخير (بالتركية) .

ـ اظنه مكتب سياحة .

ـ أوت افندم .

ـ أريـد فندقـا ...

ـ أوت أفنـدم .

ووضعت نظارتيها وأشارت بيدها تأمرني بالجلوس وهي تنظر الى قائمة لديها . واخذت تسألني وتجيب نفسها وكأني لست هنـاك أو كأنها تحدس جوابي :

ـ ألا تشرب فنجانا من القهوة ؟.. علي بيي: فنجان من القهوة للسيد ... غرفة في فندق متوسط ، نظيفة .. أوت جد نظيفة ، أوت غير غالية ، اوت افندم ، أوت .. انكليـزي انت .. أوه يـوك .. فرنسي ، أظن فرنسي .

ـ لا ، لست فرنسيا ..

انتبهت الى وجودي وحدقت الى وجهي : من اين اذن ؟

ــ عربــي ...

ــ آوه ، شوق كوزال ، شوق كوزال .. عربي .. أنت ايضا من ارض محتلة .. أنا المانيــة اسمي هيلين لاي . من بروسيــا . بلدي محتل ... هذا المجنون ويلي براندت يريــد ان يعتــرف بالاحتلال .. قل لي : ما رأيك بويلي براندت ..؟

حرت بماذا اجيبها . كان في عينيها بعض من التهديد والاغراء بداية صداقة او عداء .

قلت : أشاركك الرأي يا سيدتي .

ــ وجدت ... عندي الك غــرفة ، عظيمــة ، مدير الفنــدق شهم ... تأتي في الغد . سأحجزها حالا .

ــ اكون سعيدا يا مدام لاي اذا قبلت دعوتي للغداء . لا اريــد ان آخذ من وقتك اكثر من ذلك .

سآكل في المقهى المقابل .

ــ شكرا . سألحق بك متى انتهيت من عملي ...

وجدتها شيئا نادرا واردت ان اتعرف عليها جيدا . لم يكــد يستقر بي المقام حتى جاءت تتأبط محفظتها . لم تكن مثل تلــك التي تحملها النساء . كبيرة تكاد تنشق كأنها حشتها بكل متاعها. استرقت النظر الى الساعة . ما زال بيننا وبين تناول الغداء امد . أقعت على الكرسي وقالت :

ــ نتحدث قليــلا قبل الغداء . تعبت من العمل .

جاء أخي بالقطة الى البيت قبل الغداء ، ضحى . كانت تموء جوعا . وأبت امي الا ان يعود بها الى حيث وجدها غير انالشمس

كانت لاهبة . قالت لها : « اعود بها عند العصر . » واطعمها خبـزا فانسطعت عن الحواء ورقدت حد فخذه .

صاحت امي : انها قذرة ... لوثت البساط وثيابك .

حملها اخي الى الماء فغسلها ونزلها في الشمس . ورجعت الى الغرفة نظيفة . جميلة كعروس واقتربت مـن امـي فرفعت يـدها لتضربها ولكنها تراخت ، رق قلبها لها فلطت حد فخذها وأمي تتضاحك . واحببناها جميعا . كانت كل يوم تقوم بمعجزة . لم تدع فأرا في دارنا وسطت على العقارب فقتلتها . عينـا مـدام لاي صفراوان كعينيها .

ذات صباح ندي استيقظت مع الفجر . كان نور القمـر ما يزال يضيء التلة التي تقتعدها القرية فتبدو كتلة كبيرة من لجين . اجتمعت الدجاجات حلقة صامتة ، مدت اعناقها الى امام تحمـلق في مكان قريب من فراش أخي الصغير . اقتربت ارى . كان نائمـا تتحرك شفتاه عـن حلم صغير . كان كل صباح يقص علي احلامه. الفراشات الملونة تملأ نومه ، تهوم حواليه ويطـير دائما معهـا بأجنحة فراشية تنبت على ذراعيه وقدميه اذا غفا .

أقعت القطة كمدام لاي امام الآلة الكاتبة يدها امام انفها ، انشبت مخالبها وقريبا منها عقرب اسود توترت ابرته واصفـرت سمّا . كان يتجه الى الرأس الصغير الذي تسكنه أجنحة فراشات ذهبية وخضراء وزرقاء وحمراء وصفراء ... تجمدت عيناي كعين دجاجة، وقفت مع الدجاجات كديك يهم بأنشودة فجـر فتسـد حلقه حصاة وانسبلت يـداي على جسمي وتقلصتا كجناحين لا يطيران والعقرب يتقدم قليلا فتضربه فيتراجـع ورأتنـي فكأنها اشارت لي بألا اتحرك .

كان القمر يشحب قليلا قليلا فالشمس ترود آفق الشرق فما تبدو ، كذارس يجوب أطراف الغابة يبحث عن سبيل لسلوك مجاهلها وكأن العقرب أحس أني وراءه فاندفع نحو رأس الصغير في مغامرة اخيرة وماءت القطة بصوت يليق بذئب ثم ضربت ضربتين سريعتين كأنهما واحدة فاذا العقرب يترنح ثم همت به فتلوى ونفق وتقدمت دجاجة ففصلته نصفين واستفاق الصغير فقعد في فراشه وبكى ثم ضرب الدجاجات التي حالت بينه وبين الدخول مع فراشاته في قلب غيمة زرقاء .

ذلك اليوم عزمت امي على آلا ننام بعدها في صحن الدار واغدقت الحليب على الهرة .

ـ نعم يا مدام لاني أنا غريب الدار .

ـ مثلي أنا .

ـ وأزيد ...

ـ لا يمكن أبدا . مستحيل .. قد تعود انت . اما أنا فقد رحلت الى لا رجعة .. حياتي رحيل .

ـ ما مهنتك ؟

ـ اكتب ..

ـ ماذا تكتب ..

ـ حكايات لاطفال كبار ...

ـ كان زوجي كاتبا أيضا . اخذ كتابه جائزة ... هل أخذت انت جائزة ؟

ـ كتبي حرام على وطني كأنها أفيون ..

ــ عندما رأيتك من بابي ظننتك مخدرا . كنـت ترنـح . اسمع ، أنا لا استطيع النوم . اظل طول الليل ساهرة . ذلك يتعب اعصابي .. وتلفتت حواليها ثم قالت همسا : هل تعرف من يبيعني منوما قويا . جربت المنومات الخفيفة ، فلم تنفع . اريد ما يحيلني جثة شبه هامدة : حشيشة ، هيروبين ، أفيون أي شيء أريد أن انام . افضل الحشيش ...

ضحكت وقلت : مدام لاي ، عدي الى الالف ، ثم عـديها مقلوبة تنامين ...

ــ أوه ! انت عبقري . سأحاول ..

ــ ألا تشربين شيئا يا مدام لاي ..؟

ــ يو ّووك ... ــ قالتها وقد تراجعت على الكرسي ومدت رأسها نحوي ، شادة على الحروف ــ شربت مرة واحدة ، فقط .. كان ذلك في ميونيخ . ذهب زوجي في زيارة رسمية . دخلنا الى « براوراي » وطلبت ماء . كنت صغيرة بعد ، عروسا ، خجولا ... أوه الخجل علة . ما زلت خجولا . تزوجت قبل ان ابلـغ الثامنـة عشرة . ألح ّ علي زوجي بالشرب . خجلت فلم ارفض . ما أطيب البيرة في ميونيخ... بعد جرعتين اخذت أثرثر واضحك . كم ضحك زوجي . أحبني اكثر من أي يوم آخر ..

عدت الى الفندق سعيدا بمعرفة مدام لاي .

دخلنا معا « بوساجي بانسيون » ، فندق صغـير ، نظيف كبيت تركي . طلب صاحبه أجرا مرتفعا ، فصاحت بوجهه فرضـخ لامرها وهو يفرك يديه . كان يرتعد كفلاح من الاناضول امام باشا من « غلطة سراي » ...

ـ اربعون ليرة فقط .. لا اكثر ولا أقل ..

ـ أمر نز أفندم .. أربعون ليرة ..

والتفتت الي قائلة : تستطيع ان تأتي متى شئت . الغـرفة جاهزة .

ونهضنـا فأتمت : متى يتعلم هؤلاء الأتراك السعر المحدود ... لم يبدّل زوجي الاسعار ابدا في فندقنا مهما كانت الظروف، كثر الزبائن أم قلوا .

ـ زوجك ؟.. فندقكم ؟.. لا أفهم يا هيلين ..

ـ زوجي الثانـي .. مـات ايضا .. ـ قالتهـا دون حـزن وضحكت ـ قتلته . نعم ، أوت : قتله سوء طالعي .

ـ ألم يكـن كاتبا أيضا ..؟

ـ كان موهوبا ...

بت التقي كل يوم تقريبا بمـدام لاي . اذا لم أذهب الـى مكتبها جاءت هي الى الفندق فصرخت : أحمد بيي فأنزل سريعا .

ومر يومان لم اجدها في المكتب ولم تمر بالفندق فافتقدتها . كنت بحاجة الى من اكلمه . احتمل ثرثرتها لان الصمت الطويل انهكني.ظننت انها في ازمير . ناداني نادل الفندق قائلا : التلفون .

كان الذي يكلمني علي بيي خادم المكتب قال : مستر أحمد بيي ، مدام لاي مريضة ، ترجو ان تزورها . هي في كينغ بانسيون.

دخلت عليـها . كانت في حال مخيفـة . عيناها جاحظتـان ووجهها اصفر :

ـ ماذا جرى يـا مدام لاي ..؟

ـ قلت لك هيلين ... ارجوك هيلين .

ـ عفوا ... ماذا جرى يا هيلين ؟

ـ سوف استدعي حالا طبيبا ...

ـ لا .. لقد جاءني الطبيب .. لا ضرورة للخوف ..

كانت رائحة الغرفة تبعث على القيء .. وتحدثت مدام لاي حديثا عجبا .. قالت :

حلمت ان لي طفلا يا احمد بيي .. جميلا مثلي عندما كنت عروسا ... نمت جيدا هذين اليومين .

حسن بيي شيطان عظيم لولا ان اسعاره غالية . هل تعرف حسن بيي ...

ـ من هو حسن بيي ...

ـ اسكت يا احمد بيي . لن ادلك عليه . طفلي يحسن الرسم كأبيه .. هل تعلم ان زوجي كان رساما عظيما ؟ .

ـ لم تقولي لي ذلك من قبل ...

ـ رسم لي الصغير بيتا في ضواحي برلين . بعيدا عن الضجة والخلق ... ليلتان ويومان يا احمد بيي وأنا لي بيت .. تلك هي السعادة . كان الصغير عبقريا نظم بيتي احسن تنظيم . لم يغفل شيئا : حتى المكان الذي أعلق فيه ثيابي . ألا ترى ثيابي يا احمد بيي كيف اضعها على الكرسي وفي المحفظة . الخزانة صغيرة لا تتسع لثيابي القليلة .. اما المطبخ . شيء هائل . شوك كوزال ... انا اكره اللحوم المجففة ولكن اين اطبخ يا احمد بيي . فكرة الطبخ وحدها تعني عندي الدموع . لم اطبخ منذ

زمن طويل يا أحمد بيي . كل النور اسعد مني . انا بلا خيبة ...

كان عبقريـــا طفلي الصغير ، صانع معجزات . تجري ريشته على الورق فيقوم البيت حجرة اثر حجرة . لم ينس شيئا حتـــى الدجاجات والقطة . عشت يومين في حياتي . هما اليومان اللذان لي فيهما ابـــن . اسمه هانز ...

كان على جدار مدام لاي صورة مولانا . سألتها :

ــ ما هذه الصورة ؟

ــ أوه أحمد بيي . ألا تعلم ؟ انه مولانا جلال الدين . أنا مؤمنة به . قالت لي صديقتي فاتوش انه يلبي دعوة المؤمنين به . العواقر يطفلن ، والحزانى يفرحون والفقراء يثرون . ذهبت الى قونية وبللت قبره بالدموع وصليت صلاة المسلمين . أقرأ المثنوي كل يوم .

وأخرجت مـــن تحت وسادتها ترجمة ألمانية لجلال الدين واضافت :

ــ حلمت به أيضا . رأيته بين العشاق : شمسا بين النجوم فانضممت اليهم . كنت أحلى النجوم . مـــا كان أجمله . شفتاه قرمزيتان . دنوت منه أقبله فوقف ودار الى اليمين ودرنا جميعا الى اليسار . درنا حتى الدوار ثم سقطت مغشيا علي وومضة نور أرى أضاءت الكون جميعا ثم انصبت الحمم على برلين . كنت اسمع الدوي ولا أقوى على الحراك . تسقط القنابل قريبا مني ومولانا ينشد ويدور ...

دخل علي بيي ، وشوشها في أذنها ثم ناولته دراهم وابتسمت راضية فخرج من الغرفة ثم عاد بعد قليل وناولها صرة صغيرة .

:نن اني لمحت عندما فتح الباب رئيس خدم المطعم القائم على طريق توسان من ظهره .

عاودت عملها في المكتب وما كان يتطلب منها وقتا طويلا ، مقتربات الموسم السياحي في نهايته وآخذت تستعد للرحيل . كنت :دعوها في غالب الاحيان الى الغداء . سألتها :

ــ هل تنامين جيدا يا هلين ؟

ــ أوه أحمد بيي ، نفعتني نصيحتك نفعا عظيما . أنام ملء جفني .

وعاد جان بول وليزيت من قونية فنزلا في « بوساجي بانسيون » .

قالا لي : علمنا أنك هنا .

كانت ليزيت سمراء كخلاسية . لم تترك فرصة وهما في الطريق الا وانتهزتها كي لا تعود بيضاء الى باريس . عرفتهما الى مدام لاي . قلت لجان بول :

ــ مدام لاي مؤمنة بجلال الدين .

فأحبها حبا شديدا وروت له بالالمانية من شعر مولانا فطرب أيما طرب للوقع رغم أنه لا يفهم كلمة من الالمانية . ثم رحل الثلاثة معا . أخذها جان بول في سيارته الى اسطمبول ومن هناك تستقل الطائرة الى المانيا .

ووصلتني رسالتان من اسطمبول احداهما من مدام لاي تقول فيها : أما جان بول فانه رائع وأما ليزيت فانها غيورة وقحة ...

أما الثانية فمن جان بول وليزيت : يقول أنت طيب القلب . احذر هذا النوع من النساء . وتقول : انها هرة مفترسة .

ثم علمت أن آجر الغرفة في « بوساجي بانسيون » هو ثلاثون ليرة فقط .

في بداية الشتاء رحلت الى كارشياكا . عدت الى البيت بعد العشاء وفتحت صندوق البريد ، صلتي الوحيدة بالعالم . كانت فيه رسالتان خلافا للعادة احداهما تبئني أن عقد عملي مع دار النشر انتهى والاخرى بالتركية لم أفهم ما تعنيه بالضبط أو فهمت فلم أصدق .

كل يوم بعد الغداء وبعد العشاء أقف طويلا أمام الصندوق وفي حلقي حسرة مخيفة أجرض بريقي ويخفق قلبي ، اتناول المفتاح راجفا : فيه رسالة .. لا .. لا فيه رسالة .. لا . وافتحه فيحملق بوجي ككهف حجاجي انتزعت منه العين حتى العظم وابحث بيدي فيه أتحسس الخشب لعل رسالة اختبأت فيه ... لا شيء ، لا شيء ... حتى اذا وجدت رسالة وضعتها على القلب ودخلت البيت سريعا فقرأتها حتى أحفظها عن ظهر قلب . أخبار الشؤم باتت حبيبة لدي لان هنالك أحياء يفكرون بي ...

ذهبت الى صديق كي يترجمها لي ، كانت الورقة مضروبة على الآلة الكاتبة : احذر ، احــذر ... لحق بــك أعداؤك حتى كارشياكا . يريدون قتلك . كلفوني بذلك . رفضت في آخر دقيقة. لا تخرج من البيت أبدا . لا تفتح بابك لاحد . أرخ الستائر على النوافذ .

عدت الى البيت ووقفت على الشرفة المطلة على البحر . كان يقذف الزبد في وجه الشاطىء الابله . ترى ماذا يحمل لي البحر في الغد ؟

لم يطرق بابي منذ شهور . كأن البيت لــم يسكنه أحد .

توقف عن زيارته المستأجرون فقط . فقد نزع صاحبه عنه الاعلان . دخلته أنا والريح ، اذا فتحت نافذة عوت واذا أغلقت اصطفقت على الجدران وانسربت من الخصاص . تجيء هي والمطر ــ المطر غزير في كارشياكا ــ فيدخلان في خفة لص . قضيت الليلة الماضية حتى هزيعها الاخير أجفف الماء فأرميه بالمغسلة . ثم نمت متعبا من الماء والمطر والريح وحلمت بالبحر الذي يحمل لي الاحقاد على موجه ، بالقتلة يضعون المدى في أفواههم كي لا تبتل بماء البحر ...

دوت صفارة الانذار وأخذت السماء ترسل شظايا حمراء ، وبدأت تتهدم المدينة ويسوت البشر ... دوت كنافخ في الصور فاستيقظت ... كان الجرس يدق . قمت من الفراش متمهلا ، أربأ بنفسي عن الخوف . حملت موسى المطبخ ووضعتها وراء ظهري: أقتله أم أدعه يقتلني ؟ ... لا بد من الاختيار في ثوان ، أقتله ... لا ، أفتح الباب ، لا ... والجرس يدق عصبيا ... فتحت ورجعت خطوة للوراء متحفزا للانقضاض عليه . كان موزع البريد يحمل لي برقية . فضضتها :

ــ عيد ميلاد سعيد ... هيلين .

من أين علمت بعيد ميلادي ؟ لم أقل لها ذلك ... ذلك يوم لا يخطر ببالي . نسيته كأنه لم يكن . كأني لم أولد . تساءلت طويلا عن معنى وجودي فانتهيت الى أنه ما كان ينبغي لي أن أكون .

نمت . حلمت بمدام لاي ترقص السماح في قافلة من العذارى البيض الشياب ، تلبس قناعا هو رأس ذئبة حية تكشر فيسقطن رعبا على الارض ، يحاولن الفرار فما يستطعن وتختفي ثم ترجع في قناع راهبة فتنشد أناشيد المثنوي . وأنا أحاول النهوض كي أرد الكيد عن العذارى فلا أقدر على الحراك وأريد أن أشترك في النشيد فيظل صوتي مخنوقا .

وقفت على الشرفة عند الفجر أشاهد الانوار الدموية التي تضرج القمم المحيطة بأزمير والغيوم المبعثرة في السماء تزهو في ألف حلة ، يتلاعب في زرقتها أرجوان الصباح فتتبرج في اختلاف عجيب من اللون كله أحمر وكله أزرق وهو ليس هذا ولا ذاك .

كان البحر هادئا ، تمشط فيه الغيوم شعرها فيسرق منها ألوانها ... كان يدعوني الى ساعة تأمل عبقة بالرذاذ الذي ترشه أمواج خفيفة ، خفيفة على الشاطىء . دلفت اليه ...

كان هناك الذي أراه كل صباح وكل مساء من الشرفة ينظر الى أعلى . توجست منه خيفة في البداية ثم تعودته فلقد غدا جزءا من الاطار الطبيعي الذي يحيط بي .

كأني أعرفه ، كأني رأيته من ذي قبل ... كأنه خارج الساعة من البحر والسكين في فمه ... عندما رآني استدار وبحثت في ذاكرتي جيدا ... نعم أعرفه كما أعرف أني ولدت في ذلك اليوم . شيء وحيد أضلني عنه . لم يكن يحمل بيده السوط . تركه هناك ، على الهضبة في أرض الوطن . رأيته يجلد بلا وعي . قوي وعنيف كرهط مجرمين . كنت أمام المحقق أجيب وعلى خطوتين مني كان يمسك بسوطه ويهوي على فتى ما تجاوز العشرين . ذاك يستجير وهذا يهوي حتى انتهى العويل وظل السوط وحده يقرع أذني بوقعه الرتيب كصوت حجارة تلقى في بئر عميقة .

مسح الدم عن السوط وقال : هاتوا الآخر ...

ما زالت « هـاتوا الآخر » تلسع أذني كسوط جلاد ... « هـاتوا الآخر ... هاتوا الآخر ... » تتردد دائمـا في سمعي كحشرجة ... لماذا جاء الى هنا ؟ مع أن الذين بلغوا العشرين كثيرون في وطني . رتلهم الطويل الذي يؤم الهضبة الصفراء طويل ، طويل

بحاجة لالف جلاد .

سرت اليه فاتجه وجهة أخرى . تبعته فاختفى .

وانقضت أيام لم أره فيها فافتقدته ...

دخلت المطعم القريب من الدار . وقف النادل يسألني ما

أطلب . كان جديدا . ثم نظر الي نظرة من يعرفني . حدقت الى وجهه جيدا . كان يعني عندي شيئا . قال :

ـ ما يأمر السيد ؟

نظرت الى القائمة فأردف : أظن أننا تقابلنا قبل هذه المرة .

قلت : أين ..؟

وتفحصته جيدا ... رئيس خدم المطعم القريب من توسان .

قال : في كوش أداسي ...

ـ آه ! صحيح ...

أخذ يتحدث معي وكأننا صديقان قديسان وأنا عابس أقتضب كي أنهاه عن الشطط ...

ـ كيف حال المدام ؟

ـ أي مدام ؟

ـ زوجتك ؟

ـ زوجتي ؟ ماذا تعني ... ؟

ـ أعني التي كانت معك في السيارة ...

ـ تلك زوجة صديقي ...

ـ كيف حالها ... (وتوقف قليلا وكأنه فطن الى عدم لياقته فأردف) وحال زوجها ؟

ـ صحن كباب وصحن سلطة ...

ـ انهما لطيفان ...

أرجو السرعة . لا أستطيع البقاء طويلا هنا . لدي موعد .

وقطبت فانسحب متعثرا ، يحس أنه عندي ثقيل الظل وأحسست بالاسى لهذا المدنف بليزيت .

أتى بالطعام وتوقف عند الطاولة فتشاغلت عنه بالاكل فلما أطال نظرت اليه شزرا وقلت : هل تريد شيئا ؟

قال : لا ...

وأنسحب أشد تعثرا . عندما دفعت الحساب . شكرني وقال :

ـ كل من في المطعم يثني على تهذيبك وكرمك يا سيد ...

ـ كرمي وتهذيبي ؟

ـ بـلى

لم أجب وذهبت . ماذا يعني ؟ لم اكلم أحدا في المطعم الا في شؤون الاكل . في اليوم الثاني اصطحبت معي كتابا أقرأ فيه وأنا أتناول الغداء فلا أبيح التحدث معي لصديقي الجديد العاشق . سألني قائلا وهو يعطيني قائمة الطعام :

ـ تسكن هناك يا سيد ؟ وأشار بيده الى بيتي ...

ـ من أين علمت ؟

ـ ليس صعبا أن أعرف ذلك . فقد رأيتك اكثر من مرة داخلا أو خارجا .

ـــ ...

أردف : سمعت أنك تدفع أجرا غاليا جدا . ليس في قلب مؤجرك بيشيكبي آوغلو ذرة من الاسلام . دينه صندوقه . ربه الليرة ...

ـــ ...

ـــ أقترح عليك أن تستأجر بيتا آخر ... لماذا لا تسكن في بنسيون ما دمت وحيدا ؟

ـــ سأرى .

ـــ سأعطيك عنوانا اذا أحببت ... اذهب الى هناك . أحسن الغرف لا تتجاوز ثلاثمائة ليرة .

قد يكون محقا . لم لا ؟ هـذا العجوز الذي يطرق بابي بعكازه في الثلاثين من الشهر لا يطيق الانتظار حتى صباح اليوم الاول من الشهر التالي . أفضل أن أترك بيته وأفارق عكازه . ذهبت الى فندان بنسيون أتردد بين ترك البيت والبقاء فيه . طرقت الباب . فتحت لـي سيدة تجاوزت الاربعين نظيفة جمة التهذيب سوداء العينين ، أميل الى القصر . قالت :

ـــ أهلا وسهلا ...

قلت : مدام ، قيل لي أن عندك غرفا للايجار .

حدجتني بنظرة رقيقة فيها أسف شديد والتفتت حواليها ثم عضت على شفتها السفلى كأنها تطلب مني الا أرفع صوتي . ثم قادتني الى غرفة فسيحة تطل على الشارع نظيفة كبياض العين وعلى طاولة في منتصف الغرفة اناء قديم من الكريستال اصفر قليلا بلوره ورسوم مذهبة توشيه عفا بعض منها وبقي بعض والطرة الشاهانية

اقتعدت الوسط كانها تنثر عليه شبكة من ذهب كي تصطاد كل بريقه ، وفيه باقة من نرجس تعبق بأريج قريتي ... اقتربت منه وشممت ، ثم شممت ملء رئتي وجوانحي .

ماذا حل بمسكبة النرجس في دارنا ؟ ما كان أسعدني عند ما كنت انتزع منها الحشائش الضارة وأحفر حول البصلات وأنضدها وأسقيها ، ثم أمر كل صباح بها حتى أرى أول نرجسة فأحملها الى جدتي . كانت مولعة بالنرجس . جاءتني بالبصلات الاولى وطلبت مني أن أزرعها كأني لا أصبح حفيدها الحقيقي ما لم تمرغ يداي بعبير النرجس .

فررت من القرية ذات يوم وقد اخضرت المسكبة فأخذ يلتهم السرطان حنجرة جدتي فما تستطيع ترتيل القصائد الصوفية ولا يسمع الله صلواتها الحبيسة بين العنق والقلب .. بح حلقها واليدان فتشير وانية أن آتوني بالنرجس وعدت قبل أن ينتهي جناه فحملت لها باقتي الاخيرة ... كان فراشها عند ما ماتت كاناء قديم ليس فيه غير جثة فانية وعبير النرجس ...

ــ الغرفة عظيمة يا مدام ... أحب النرجس ...

وضعت أصبعها على فمها وقالت هامسة : قل أنها رطبة ، أنها لا تطل على البحر ...

ــ ولكنها تعجبني ...

عضت على شفتها مرة أخرى وأصغت الى الباب ثم اتجهت اليه على رؤوس أصابعها وفتحته . لم يكن هنالك أحد . كان رئيس الخدم في المطعم القريب من توسان على باب النزل يهم بالخروج . وعادت الى وقالت :

ــ ألا تريد أن تشرب فنجانا من القهوة يا أحمد بيي ..؟

ـ ذلك شرف عظيم يا مدام ... من أين عرفت اسمي ؟

ـ كثيرون هنا الذين يعرفون عنك اكثر مما تظن . كثيرون الذين يحبونك وتجلهم ... نعرف أنك منفي ومعذب .

جلسنا في الصالون وطلبت القهوة . كانت في جلستها كأنها الشاهد الوحيد الباقي من الامبراطورية العثمانية . سألتني :

ـ ما هذه الصداقة التي تربطك بمولود بيي ؟..

ـ أي مولود بيي ..؟

ـ مولود بيي ، نادل المطعم ؟

ـ أنا ... الآن عرفت اسمه فقط .

ـ حجز الغرفة لك منذ أيام ودفع الاجر . يزعم أنك أعز صديق لديه . تسهران معا كل يوم ...

ـ أنــا ؟

ـ هكذا قال .

ـ ولكني لا أسهر أبدا خارج البيت ، لم أكلمه الا لماما .

ـ اسمع يا أحمد بيي . فهمت الآن أنه يكذب وأجهل لماذا . سألت عنك . قيل لي انك انسان طيب وقبلت حجز الغرفة حتى أراك . اعلم أني أريد طرده من هنا . سمعته سيئة . رغم أنه جاء كارشياكا منذ أمد قصير . يسكر ويحشش . صاحب المطعم يريد طرده أيضا . انتظر حتى نهاية الشهر حين ابلغه ضرورة ترك النزل وعندئذ تكون الغرفة بانتظارك . تدفع الاجر الذي تحب .

ـ أنت طيبة أيتها السيدة ... شكرا لك ...

ـ اسمي كلفدان ... اذا جئتنا كنت بين أهلك .

وشربنا القهوة . قالت : أقلب الفنجان ... وضحكت .

ــ صحيح ؟

ــ أوه صحيح جدا . تعلمت قراءة الفنجان من مربيتي التي كانت عندنا أيام العز ولم تفارقنا في أيام البؤس . كان جدي من باشوات « ضولمة بهجة » .

أمسكت بالفنجان كأنها من الآلهة اليونانية الثلاثة اللائي يقطعن متى شئن خيوط الحياة . كأن سفر حياتي مفتوح بين يديها تقرأه سطرا ، سطرا .

ــ قلبك أسود يا أحمد بيي ... أف ، انك تختنق يا أحمد بيي . يداك في حلقك كأنك أنت الذي تخنق نفسك . كثير الهموم والأفكار ولكنك طاهر ونقي كصلاة جلال الدين ... أف ، ما اكثر الذين يريدون بك الشر ، خناجرهم في أيديهم ولكنهم لن يستطيعوا شيئا . ان الله يحبك ويحميك . أنت مبارك من الله ... انظر ، انظر في الفنجان ... (تطلعت لم أر شيئا) ... ألا ترى الملائكة حواليك ؟ ... أف أنت لست غنيا كما يزعم مولود بيي ... أنت في عسر شديد . قل لي اليس كذلك ؟

ضحكت ولم أجب .

ــ ستترك بيتك قريبا قريبا قبل أن تجيئنا . ستسافر الى بلاد بعيدة . أنت كثير الاسفار . ولكنك قد تعود الينا بعد اشارة أو اشارتين .

عندما نهضت مودعا فتحت يديها وتمتمت تقرأ شيئا ثم مرت يدها على رأسي وأضافت :

ــ أنا من شيعة مولانا .

وهدأ صداعي فصافحتها شاكرا . واتجهت الى البحر أتوقف بين الفينة والفينة امام الجنائن الصغيرة فأشم وردها ثم اتابع نزهتي . وفي آخر الزقاق قبل الشاطىء رأيت في المقهى الصغير مولود بيي والخارج من البحر يشربان كأسا من العرق . لقد فهمت كل شيء .

***

وردتني رسالة من ناشر ألماني صديق يقول فيها :

« اكون شاكرا لـك لو خدمتني خدمة صغيرة . عثرنا في ميونيخ على مخطوطة رواية تليق بأعظم الكتاب يعود تاريخها الى ١٩٣٦ مهداة هي وحقوق النشر الى خطيبة المؤلف . كان يود أن تكون مفاجأة سارة يوم يكون لها منه ولد ولقد مات في الحرب وبقيت زوجته على قيد الحياة . بحثنا عنها من أجل عقد النشر . قيل لنا انها في تركيا . اسمها هيلين لاي . كانت تعمل في مكتب سياحة . »

كانت صادقة اذن مـدام لاي . لو استطعت أن أزف اليها البشرى . وحرت ، هل اكتب فأقول له أنها الآن في المانيا أم انتظر عودتهـا ؟

ونسيت في زحمة الخطر المحدق بي مـدام لاي والرواية الرائعة . ثم جاءتني رسالة أخرى مضروبة على الآلة الكاتبة فهمت منها أنها تحذرني أيضا . أخذتها لصديق يحل رموزها . وأنا في الطريق لاحت لي محفظة مدام لاي ومعها مدام لاي تقف على واجهة دكان متحفزة كقطتنا . وقفت وراءها فلم تنتبه الي . قلت : صباح الخير مدام لاي ..

فالتفت وقد أخرجتها من سهومها : أوه يا عزيزي ... كنت في طريقي اليك ... وشدت عـلى يدي وهزتها هزا عنيفا : كم أنا

مشتاقة اليك يا عزيزي ...

كان وجهها أقل شيخوخة وعلى وجنتيها نضرة لم أرها من قبل . قلت :

ــ كيف الصحة يا مدام لاي ؟

ــ أوه ــ وتراجعت للوراء محتجة ــ قلت لك هيلين .

ــ عفوا يا هيلين ... متى عدت ؟

ــ البارحة مساء . كنت متعبة . لولا ذلك ما تأخرت عليك .

ــ يسألون عنك في المانيا ...

ــ طبعا أصدقائي هناك كثيرون . من منهم ؟

ــ ناشر حظي برواية كتبها زوجك . حقوق الطبع هي لك . كتبها عندما كنتما خطيبين ...

ــ أوه مسكين هانز ... كان عظيما ...

ــ أظنك تجهلين كل شيء عنها . هل تقبلين دعوتي للغداء كي آتي لك بالرسالة ؟ أقترح عليك السفر للتو الى المانيا ...

ــ أقرر عندما أقرأ الرسالة . ما رأيك في مطعم «عبدالله» ؟

ــ حسنا .

وبحثت في محفظتها طويلا ثم أخرجت علبة حسنة الغلاف واعتذرت أنها شيء تافه لقلة امكانياتها .

* * *

جلست في مطعم « عبدالله » ساهما انتظر مجيء مدام لاي . لما قرأ صديقي التركي الرسالة الصغيرة فغر فاه . كانـت

مكتوبة بتركية ضعيفة . لم يشك بأن كاتبها أجنبي . « كتبت لك رسالة سابقة فلم تفهمني . احتفظ لنفسك . أصبح الخطر حولك شديدا . انصحتك أن ترحل . يريدون قتلك . أعدوا كل شيء . اتفقت معهم كي أفسد خطتهم . اذا نفذوا أنقذتك في آخر دقيقة ولكن الافضل أن ترحل . لا تكن بليدا . انك تثقل على وجداني ولذلك سأغامر بحياتي . لا أقدر أن أخبر البوليس لاسباب شخصية . ارحل حبا بالله . ارحل .. أرحل ... »

قال لي : لو كنت مكانك لسافرت .

وعرض علي بيته الريفي في « شيشمة » قائلا : يا أحمد بيي . لن أدعك حيث أنت ... بأي وجه أقابل أولادي لو حدث لك حادث ؟ يحبونك حب عبادة .

ما كنت أظن أنه يكن لي كل هذا الود . لم أره غير مرات قايلة . ما أعجب الانسان ! ينبوع حب ... أف ، ينبوع حقد أيضا.

قلت له : أجيبك في الغد ...

قال : أرجو أن تقبل . أؤكد لك أني لن استطيع النوم حتى الغد .

تأخرت مدام لاي وأنا متوتر الاعصاب . كانت هديتها علبة ثقاب كبيرة ، من تركيا لا من المانيا . واصطفق باب المطعم في ضجة خاصة ودخلت هيلين ووقفت فتفحصت المكان تبحث عني حتى اذا رأتني اندفعت نحوي كاعصار .

ناولتها رسالة الناشر فقرأتها بامعان وتوقفت عند (يوم يكون له منها ولد) فتغضن وجهها واكفهر ورمت بالرسالة الي .

ــ كان هانز كلبا ...

ــ لا يا هيلين ...

ــ كلبا حقيرا ... أحبني من آجل آن يكون له ولد .

وصفقت للنادل . قالت له :

ــ كأسا من العرق مضاعفة ...

قلت : ماذا جرى يا هيلين ؟

ــ اسكت ...

جرعت جرعة كبيرة ، ثم أخرى وتراخت على المقعد ثم حملقت بالسقف وانفجرت ضاحكة .

ــ مسكين هانز ، لم يكن يعلم أني كالحجر لا أطفل . ألا تريد أن تشرب أنت ؟

ــ لا ...

ــ من يدري ربما أصبحت آما بعد حين ...

ــ مـــاذا ؟

ــ لا أحب أن أعيد ما أقول .

ــ ألا تسافرين لالمانيا ؟

ــ لا ... اعطني العنوان . اكتب للناشر من هنا . في ازمير قنصلية المانية أوقع فيها العقد واثبت شخصيتي ...

ثم حدقت بالسقف وأغمضت عينيها وانسبلت الدموع غزيرة على خديها . وأردت أن أخرجها مما هي فيه . قلت لها :

ــ يا هيلين أريد أن أقرأ لك رسالة ثانية ولكني أتركها ليوم آخر . أعصابك لا تحتمل مصيبتين .

ـ أنا ؟ اقرأ كل رسائل العالم ... (ومسحت الدموع عن خديها) . جئني بكل مصائب الخليقة . أحزن دقيقة ثم أعود كما كنت . هيلين لاي القاسية كصخرة .

مددت لها الرسالة الثانية . اهتست وظهر عليهـا الخوف . قـالت :

ـ دعني أسكن في بيتك ، في أية غرفة كانت . كي احرسك.

ـ أنت تحرسينني ..؟

ـ نعم أنا ... يبدو أنك لا تثق بشجاعتي . تقول في نفسك امرأة . أليس كذلك ؟

ـ آسف يا هيلين فليس عندي في الدار غير سرير واحد .

ـ أشتري سريرا وفراشا . لا تهتم بالامر .

ـ سأفكر بالموضوع ..

ـ أنت مجنون . ليس هذا وقت التفكير . سأسكن عندك شئت أم أبيت . حياتك غالية عندي .

ـ ولكن يا مدام لاي ...

ـ قلت لك هيلين ...

ـ ولكن يا هيلين لا أستطيع أن أعيش مع أحد .

ـ لست كالآخرين . لن تحس بوجودي أبدا . أذهب كل صباح مع الفجر الـى « كوش آداسي » وأعود مساء فلا تراني الا لمامـا .

ـ لا أستطيع يا هيلين .

ــ سأجيء اليوم رغما عنك .

ــ ولكن يا مدام لاي ...

ــ هيلين ... هيلين . هل تسمع : هيلين !

ــ مستحيل يا هيلين . مستحيل أنا لا أستطيع العيش مع أحـــد .

ــ لماذا ...؟ حياتك في خطر ...

ــ أنام قليلا ... قليلا جدا . ساعتان . ثلاث ساعات على الاكثر . أقضي الليل ساهرا ، أروح وأجيء في المنزل . استمع كل الوقت الى موسيقى صاخبة ، عنيفة ...

ــ أوه ، موسيقى .. عظيم ... أي نوع منها ..؟

ــ سترافنسكي ، بنديريكي ، فاجنر ...

ــ أوه أعبد ڤاجنر . كنت أذهب دائما مع زوجي لاحتفالات بايروت . اعوام كثيرة لم يفتنا منها احتفال واحد . ذلك يشجعني على السكن معك . سأذهب اليوم حتما الى بيتك وسترى آن أحدا لا يجرؤ على الاقتراب منك . أنا خير حارس لك .

قلت للبواب بالتركيـــة الممزوجة باشارات اليد : اذا جاءت سيدة أجنبية سمينة قصيرة . قل لها أني لست هنا . لا تدعها تدخل.

أحكمت اغلاق الباب وقبعت صامتا خائفا لا أتحرك . كلما هبت الريح ظننتها أتت بمدام لاي على راحتها ومضى الليل دون أن يبدو لها أثر .

قالت لي أنها ذاهبة في الغد في السادسة صباحا الى « كوش آداسي » . التاسعة ذهبت الى البريد وجدتها تحملق في واجهة

دكان فانزلقت في طريق آخر وقلبي يضطرب كطائر . ما السر ، أعهدها جدية في عملها . ذهبت دون هدف لا ألوي على شيء وقبعت في مقهى بعيد أنتظر كي تخلي طريق البريد .

وانقضت أيام لم ألمح لها فيها أثرا . يبدو أنها رحلت الى « كوش آداسي » .

زارني أحد رجال الامن . قال : لدينا يا أحمد بيي ما يؤكد أن حياتك في خطر . هنالك عصابة لم نستطع بعد أن نضع أيدينا عليها وقد جئت اليك كي تساعدنا في الأمر .

ـ من هي العصابة وكيف علمت ذلك ؟

ـ ذلك شأني ...

ـ ماذا تريد أن أفعل ؟

ـ ترحل عن البيت أياما . خطتنا أن يسكنه سواك . نعلم أنهم ينوون التنفيذ بعد أربعة أيام . اذا جـاءوا فوجدوا غيرك أسقط في يدهم وقبضنا عليهم في الجرم المشهود . تدبر رحيلك اليوم وغدا . لا اكثر .

فكرت بمدام لاي . ذهبت الى النزل الذي تقيم فيه . قال لي مدير الفندق :

ـ ذهبت الى « كوش آداسي » من أجل عملها .

عزمت على السفر الى هناك لعلها تقبل بسكن البيت كلما جاءت ازمير ، وفي الطريق رأيت المحفظة ومدام لاي .

ـ صباح الخير يا مدام لاي ...

ـ هيلين ...

ـ عفوا ، صباح الخير يا هيلين .

ـ صباح الخير أحمد بيي ، ناسل سينيز أفندم ؟

ـ شكرا

ـ لم أذهب اليك لان عملي شاق لم يمكنني من ذلك فالموسم في بدايته .

ـ اسمعي ، تعالي غدا لاني مسافر . تظلين في البيت حتى أعود ، حتى أعود فقط .

ـ أورت افندم .

مررت بصديقي التركي أودعه . قلت له : أنا مسافر لاوروبا.

قال : ولكن يا أحمـد بيي « شيشمة » أفضل لك . السفر يكلفك مصاريف أنت في غنى عنها .

قلت : لقد حزمت أمري وعندما أعود أعدك بالذهاب الى « شيشمة » .

قال : مرت بي ألمانية منذ أيام مع شاب أسمر أظنه أجنبيا فسألتني ان كان لدي بيت فارغ في بنايتي للايجار ... زعمت أنها صديقتك وكان بودي لو أساعدها ولكني لم أستطع وللاسف فالبناية كلها مؤجرة . صعب أن يجد المرء بيتا فارغا في ازمير .

ـ لم تحدثني في ذلك .

* * *

طرقت باب جان بول فجاءني صوته ضعيفا من الداخل . عند ما فتح الباب شده لما رآني فيه قال : عجيب ، كنت أفكر فيك كثيرا في الاسبوع الماضي . كلما خطرت بذهني أحسست بالضيق.

قل لي مـا السبب ؟ أظنك كنت في وضع سيء . قلما يخطئني الحدس .

تغير جون بول كثيرا . نحل واصفر وجهه وطالت ذقنه كأنه من الدراويش وعلى الطاولة الصغيرة القذرة زجاجة خمر مع أن الساعة كانت العاشرة صباحا وأعقاب اللفائف تملأ صحنا كبيرا . كان منهكا . أعتقد أنه لـم ينم ليلة البارحة . انتظرت أن أرى ليزيت ولكنها لم تأت . قلت له :

ـ أين ليزيت ؟

ـ لا أدري ...

ـ ماذا تعني ؟

ـ غادرت البيت ... قال الجملة الاخيرة في غصة حزينة .

ـ لمـاذا ؟

ـ لم تقل لي . انه قدري . لا تكمل رسالتي الا في عذاب كبير . كان زواجي منها ... أوه لـم يكن ذلك زواجا حقيقيا . سميناه كذلك لاننا فوق التقاليد . أردناه بدعة تمرع بالطقوس الجديدة . غير أن الرجل والمرأة عند ما يعيشان معا يصبحان بعضا من المجتمع ، خلية من خلايـاه . الزواج حبل وولادة والعصاة ينتهون دون خلف . انهم زرع لا جذور له. أردنا أن يكون زواجنا معصية من معاصينا ، ثم وجدنا أن الزواج لا يمكن أن يكون الا وقارا اجتماعيا . عند ما تفكر بضرورته ينتهي عصيانك . ما هي القوانين يا أحمد بيي ؟ انها ــ ولنأخذ التعريف المتفق عليه ــ تنظيم العلاقات بين الافراد . عندما يفكر الانسان بالنظام فانه ينظر الى المرآة ، يملي على المجتمع نظام ذاته . قوانين المجتمع منقولة عن علاقة الاعضاء ببعضها ، صورة كبرى للطقوس التي تنظم جسد

الانسان . عندما أردنا أن يكون زواجنا بدعة تحدينا الحياة في أروع صورها ، كذبنا عليها وعلى أنفسنا . كنا سخيفين . ظننا أننا نعتلي على القدر اذا عشنا معا دون أن نقف أمام الكاهن كأن ذلك شيء خطير وعظيم . اعتقدنا أننا اذا لم نشهد الدولة على علاقتنا فقد نسفنا الدولة . كان ذلك لهو أطفال .

كانت تلك تجربة عظيمة فقد تبينت أن الزهو ليس عصيانا . انه فقر . انه ادقاع . رضى بالمظاهر والعرض . وجدت أني لم أكن وليزيت غير قردين صغيرين نقلد العبقرية فنستمتع باستغراب زبائن مقاهي الحي اللاتيني كأن انتقاء شكل جديد من أشكال الزواج هو اكتشاف أمريكا . بل لم أفهم يا أحمد بيي لم كنا نعطي التحلل من المجتمع كل هذا الوزن . ترى لو كتب لي أن أحقق مهمتي الكبرى هل يتحدث الناس في المستقبل عن جان بول الذي تزوج على هواه أم عن جان بول الذي منح الانسان بعضا من غذائه الروحي ؟ لا أراني بحاجة للجواب .

تأملت طويلا في الطريق الى قونية وفي رحاب جلال الدين عذوت نفسي . وعندما عدت الى باريس وجدتني فوق العرض . مهمتي أن أتأمل أما ليزيت فقد رجعت كما كانت . وذهبت حزينة وهي تعلم أننا افترقنا وانها فقدتني كما فقدتها .

أنا حزين من الاعماق يا أحمد بيي . أبحث فلا أجد . أتساءل بين الحين والحين أحقا ان لي مهمة كبرى أم ذلك نسج خيال طموح ؟ حتى الآن لم اكتب شيئا هاما عن جلال الدين . لم أر جماله . انني احترق يا أحمد بيي ...

صمت . فاستمر :

ـــ قل لي يا أحمد بيي ... لا تخف عني .أظنك تعرفني جيدا. أعتقد أنك حللت شخصيتي . قل لي رأيك ...

ـ أنت ما احترقت بعد يا صديقي ... احترق جيدا ... قد لا تتصل الى شيء فشار النار لا تنضج جميعا ولكن ما ينضج منها يبهر النظر بضيائه ... ليس عندي لك غير نصيحة وحيدة : اشتعل حتى ترى . ان الذين يصلون الى القمة ، انما يصلون على رمادهم . انهم صفوة الانسان ... ان رؤية الاسرار هي جهد موسوم بالعذاب ... احترق يا جان بول حتى ترى ...

ـ ربما أعود قريبا الى قونية ... هناك وجدت نفسي . كنت في أوج التأمل . كنت صافيا .

* * *

عدت الى كارشياقا . كان بشيكبجي اوغلو ، على الشرفة فنزل سريعا وحدثني مغضبا فلم افهم تماما ما يريد : أجنبية ... ادب ممز ... طلبت منه أن ينتظر مجيء ابنه كي يترجم بيننا .

وجدت رسالة مـــن الناشر الالماني يقول فيها : « يبدو أن السيدة هيلين لاي غير سوية العقل . طلبت مني ألا أنشر الرواية الا حين يكون لها ولد . أظن ذلك مستحيلا فلقد بلغت على ما علمت قرابة الستين . أرجوك حاول اقناعها . »

مسكينة مدام لاي . ذهبت وصية زوجها بالبقية الباقية من عقلهـــا .

دخلت البيت . كانت رائحته زنخة عفنة تشبه رائحة غرفتها في « كوش آداسي » . فتحت النوافذ كي أبدل الهواء . غرفتها تبعث على الدوار . أخذت أنضد الاشياء المبعثرة وفجأة سقطت على الارض كرة صغيرة خضراء الى صفرة ، انتزع جزء صغير منها . تفحصتها : جشيش .

عند المساء . جاء صاحب الدار وابنه .

قال لي : من أين جئتنا بهذه المصيبة ؟ لقد أقضت مضجع البناء كله . يا أحمد بيي نحن أناس محترمون محافظون لا نطيق هذا النوع من البشر . رائحة البنايه باتت زنخة ... كانت لا تنام حتى الصباح هي وصاحبها الأسمر : الراديو يلعلع . والصياح والضحك . كلما استفاقت في الضحى ذهبت الى السوق فرجعت ومحفظتها ملأى بزجاجات العرق ...

قلت : أقسم لك أني لم أكن أعرف عنها هذه الاشياء ... ولكن لم لم تطردها ؟

تردد قليلا في الجواب ثم قال : ولكن البوليس أمرنا بأن ندعها وشأنها ... طلبوا أيضا منا أن نخبرهم حين تجيء أنت ... أرجوك يا أحمد بيي لا تقبل عودتها الى هنا ... والله لم أنم خلال اقامتها هنا . حمدت ربي عندما غادرت البيت منذ خمسة أيام ولكنها قالت أنها راجعة . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ــ الى أين ذهبت ؟

ــ لم تقل لنا ...

ثم جاء رجل البوليس . قال لي : يا أحمد بيي أوقعتنا في ورطة . أفسدت علينا كل خطتنا ...

ــ كيف ... لا أفهم ...

ــ لقد سلمت البيت الى العصابة التي تريد قتلك ...

ــ ماذا تعني ...؟

ــ مدام لاي تعيش مع الذي جاء لقتلك ...

ــ والآن ... ماذا أفعل ؟

ـ ترحل مرة أخرى . بعد أن تطردها من البيت ونحن نتولى بقية الامر . يجب أن نضع خطة أخرى .

قلت : أسوي الامر مع مدام لاي ثم أرحل الى « شيشمة ».

ذهبت الى « كوش آداسي » وجلست في المقهى . لم تكن مدام لاي في المكتب . قد تكون في عمل ما خارجه . طال انتظاري . كان علي بيي جالسا على كرسي عال لا تطال قدمه الارض . ذهبت اليـــه .

ـ صباح الخير علي بيي ...

ـ أوه ... أحمد بيي ناسل سينيز ؟... ما هي أخبار مدام لاي ؟...

لم أفهم . قلت له :

ـ جئت أراها . أين هي ؟

ـ لست أدري . لم نتعاقد معها هذه السنة . لانها كما تعلم (ووضع اصبعه على صدغه ودار بها) مجنونة قليلا ، على كل حال هي امرأة طيبة . أنا أحبها كثيرا .

مسكينة مدام لي يبدو أنها كانت تزرع شوارع ازمير حتى تتعب .

ذهبت الى فندقها في ازمير . منذ دخلت بادرني مدير الفندق قائلا : أين الالمانية العجوز ؟

ـ جئت أسأل عنها .

ـ لا نعرف . منذ عشرين يومـــا لم نرها . وضعت عندنا أشياءها وذهبت ونخشى عليها ، فهي غالية الثمن على ما يبدو .

أخذت بها وصلا ... هذه المرأة مخيفة .

قلت له : هل لك في آن تريني ما تركته عندك .

بت طلعة استقصي كل ما تفعله مدام لاي . ثياب حريرية تعودت عيني رؤيتها في دمشق . وهي تدل في واجهات مخازنها على المارة ، البروكار الانيق المرفه الذي لا يمكن أن تصنعه غير دمشق لان اليد التي تحوكه يد جني ولد في غابات الفن ومجاهلها المحرمة على البشر .

قلت له : سأحاول أن أرد لك عزيزتك مدام لاي .

أغرق بالضحك وقال : خذها الى الفندق الذي تريد وأنا أدفع الاجر ...

***

كنت على الشرفة . توقفت سيارة أمام الـدار . بعد قليل نزلت منها مدام لاي . صاحت :

ـ أوه أحمد بيي ...

وركضت حتى باب البناية وهي تشير بيدها كفتاة في الثامنة عشرة . فتحت الباب فاندفعت كأعصار : أوه يا عزيزي ... كم أنا مشتاقة اليك .. أوه .. أوه ...

ثم حملقت بعينيها ووضعت محفظتها على الارض وصاحت : مجنون أنت ! حتما أنت مجنون ... ماذا تفعل على الشرفة ؟ ... لماذا لا ترخي الستائر ؟ تريد أن تموت ؟ أين عقلك ؟

ودارت في الدار فأغلقت الابواب والنوافذ وأرخت الستائر وأنا لا أقول شيئا ... ثم جلست متعبة ...

ـ أوه ، أريد أن أستقيل . لا أستطيع العمل اكثر من ذلك . كرهت « كوش آداسي » . أنا مريضة . العمل مرهق ...

كانت موردة الوجنتين كصبية صغيرة : آخر انتفاضات الفتوة في جسد هرم .

ـ انصحني يا أحمد بيي ... هل استمر بعملي أم لا ؟

قلت لها في برودة شديدة : منذ ثلاثة أيام كنت في « كوش آداسي » سألت عنك علي بيي ...

اصفرت وارتبكت .

ـ ما قال لك ؟

ـ مدام لاي ...

ـ قلت لك هيلين ...

لم يعجبني اعتراضها . كنت آخذه على محمل الاستخفاف . كان علي في تلك الساعة أن أكون اكثر جدا .

ـ مدام لاي أو هيلين ذلك لا يختلف عندي كثيرا ... اسمعي ، أنت لم تعملي هذه السنة في « كوش آداسي » .

تراخى فكها الاسفل وحملقت . كانت قطتنا عندما تفاجأ في سرقة صغيرة تحني رأسها خجلا وتضع رأسها بين يديها . ذلك اختلاف بسيط بينهما غير هام .

قامت على عجل ودخلت غرفتها ثم رجعت بعد قليل حائرة . أخرجت الكرة الصغيرة من جيبي . قلت لها : خذي ... تبحثين عن هذه على ما أظن ...

قالت ثائرة : أرى أنك بحثت بين أشيائي .

قلت : نعم .

تناولت كرة الحشيش وفتشت في محفظتها في عصبية عاتية . لم يخف علي أنها كانت تبحث عن علبة الدخان . كانت تلك في مكان ظاهر . لامستها بيدها اكثر من مرة ولكنها لم ترها . أخرجت لفافة وقدمتها لها . تناولت دبوسا وعالجت التبغ فأخرجته في خفة شيطان ثم دست الحشيش وأعادت التبغ وآشعلت اللفافة ثم قالت :

ــ ألا تريد أن تحشش ؟..

ــ لا ...

وامعنت بالتحدي .

ــ ألم تري علبة سجائرك . أنظري (واشرت اليها) ... انها هنا ... وضحكت .

ــ ...

ــ أين كنت يا هيلين ... ؟

لم تجب . انتهت اللفافة . أخرجت أخرى من علبتها ووضعت فيها الحشيش ودخنتها .

ــ جعلني هانز ساقطة ... نعم لم اكن في « كوش آداسي » . لو علمت أين كنت لازددت حيرة ... كنت في قونية ، زرت قبر مولانا جلال الدين ... أنت مسلم أليس كذلك ؟

ــ نعم ...

ــ قيل لي ان العاقر اذا جاورت قبره يوما وليلة أطفلت . تعلمت صلاتكم وقضيت أياما ثلاثة . صليت كل صلواتكم فيها . وعدته أن أسلم اذا كان لي ولد وأن أنقطع الى خدمته ما عشت أنظف المسجد كله وحدي اذا لباني ... لن اسمي ابني « هانز » لان زوجي لا يستحق أن تبقى ذكراه معي ... سأدعوه جلالا ...

ـ يا مدام لاي لا أصدق شيئا مما تقولين …

لم تعترض هذه المرّة بل قالت : أقسم لك …

ـ على كل حال تلك أمور لا تعنيني . أشكرك للخدمة التي قمت بها نحوي والآن استودعك الله .

أرجو أن تأخذي أشياءك وتغادري المكان …

ـ اقترح عليك اقتراحا يا أحمد بيي أن تذهب أنت وتترك لي الدار . بحثت طويلا عن طابق اسكن فيه فلم أجد . أنا بحاجة لبيتك . تستطيع أن تسكن أنت في أي مكان شئت . أما أنا فقد بت بحاجة له وانت صديق عزيز لا ترد هذا الرجاء .

ـ هل فكرت بما تقولين يا مدام لاي ؟ … أرجو أن تغادري البيت حالاً … أعرف مـن تعاشرين … الخطر علـيّ هو في وجودك معي …

وانتفضت مسعورة : أنت مجنون !

ـ أرجو أن تذهبي حالاً …

ـ اذهب أنت …

ـ انه بيتي … بيتي أنا …

ـ تستطيع أن تستغني عنه أنت ، أما أنا فمستحيل …

ـ أقول لك يجب أن تغادري البيت حالاً …

ـ أين أذهب ؟

ـ اذهبي أنى شئت .

ـ دعني الليلة هنا فقط …

ازدادت شكوكي ... لم لا تذهب الى صديقها ؟ ... الليلة فقط ؟ لماذا ؟..

قلت لها : يجب أن تذهبي حالاً ...

ـ ولكني متعبة ...

ـ قلت لك حالاً ...

ـ أنصحك أن تدخن لفافة من الحشيش ...

ـ أرجو أن تحتفظي بنصائحك ... هيـا يا مدام لاي ... هيـا ...

صرخت بوجهي ومدت أصابعها نحوي كأنها تنشب أظافرها قطتنا وقد أغيظت : لن أخرج وافعل ما تشاء ... ان لم تسكت صحت وولولوت ، اتهمتك بافتراسي .

اسقط بيدي . لم أعد أعرف ما أفعل . بات لا مندوحة من ترك البيت . لقد وضح لي أنهم ينفذون خطتهم ... أحسن شيء أن أذهب الى « ششمة » . قلت لها :

ـ حسنا .. كما تريدين يا مدام لاي . سأترك لك البيت ...

ـ صحيح يا أحمد بيي ؟ انك ملاك .

ونهضت فقالت : اجلس يا أحمد بيي . أريد أن أحدثك بأمر هام ...

لم أشك بأن الحشيش أخذ مأخذه منها .

ـ ألا تريد أن تقدم لي فنجانا مـن القهوة ؟ أعرف أنك تصنعها جيدا .

لم استطع ان ارفض . كان في لهجتهـا شيء محبب رغم كـل شيء . صنعت القهوة وقدمتها وأنا أضحك في نفسي تارة وأثور أخرى ... شيء عجيب . قطتنا لم تطردنا من البيت . عاشت معنا مدللة وحبيبة . بلغت من العمر ما لا تبلغه القطط . سقطت اسنانها جميعا . آخر مرة رأيتها فيها كانت تقبع حد أمي وهي تقدم لها الطعام مضغوطا لا تكلف نفسها الا عناء ازدراده. مدام لاي ليست كقطتنا . انها أشرس . كانت تحدق الى السقف لا تحفل بوجودي. شربت جرعة ، ثم قالت وعيناها الى السقف :

ـ أنا عاشقة يا أحمد بيي ... عاشقة حتى الجنون ... لم أحب قبل الآن أبدا .

ـ أعرف يا مدام لاي ... أعرف من .

انتفضت ونظرت الي :

ـ من ؟

ـ الذي يريـد قتلي . أعرف كل الحكاية ... أنت وهو ومولود بيي وآخرون ...

ـ انت مخطىء يا أحمد بيي ... تبدل خالد بيي . عاد الى طبيعته . انه بائس ومسكين ...

ـ أعرفه جيدا ... رأيته قبل الآن . قد يكون بائسا وشقيا ولكنه من طينة غير بشرية .

ـ أنت مخطىء يا أحمد بيي . لو اراد قتلك يا أحمد بيي لكنت منذ زمن طويل من الموتى . أتيحت له فرص كثيرة وخانته الشجاعة ... أفه ، أنه شجاع ... خانته الجريمة . انه ليس مجرما . لو عرفت كم هو متردد وحزين ... كلما شرب الحشيش بكى .

كان ضائعا . أرادوا منه أن يكون قاتلا فجاء اليك مشحوذ المدية ولكنه ضعف أمام الدم . يعرف أنك بريء ويحبك لانك بريء . مادا يفعل . ان لم يقتلك فنلوه وان أقدم في هذه الأرض البعيدة ذهبت ريحه معك . ضع نفسك في مكانه ...

عندما علمت الخطر المحدق بك عزمت على أن أخلصك . ولقد خلصتك. صمم على أن يبقى هنا أو يذهب معي الى المانيا ... سنتزوج ... لو رأيته على قبر مولانا . بكى .. بكى كثيرا يا أحمد. قال كلمات لم أفهمها . هناك لم يفعل شيئا الا الصلاة والدموع ...

لكنه غيور كنمر : ما أسعدني بغيرته ، انه مفترس ... (وضحكت) .. أثير غيرته بين الحين والحين كي يحبني ، كي يحبني حتى الجنون ...

ما رأيك لو عشنا معا يا أحمد بيي ؟ نسهر على راحتك ، نخدمك .. أنت تأخذ غرفة ونحن أخرى . نجعل من البيت بعضا من النعيم ...

ــ أنت تحسنين التمثيل يا مدام لاي .

ــ أنا ؟ لا تكن غبيا يا أحمد بيي . أقسم لك أننا سنحرسك، أننا سندفع حياتنا ثمنا لحياتك . انه أشجع من النمر ... بات يحبك حب عبادة يا أحمد بيي . يؤمن بنقاوتك ايمانا أعمى ..

ــ لا ، يا مدام لاي . سأترك البيت ...

ــ حبا بمولانا ، أدعني هيلين ...

نظرت اليها ممتعضا وخرجت من البيت متجها الى صديقي التركي . بعد أن سرت مسافة قليلة وجدت أمامي رجل البوليس . كان يتبعني . قال :

ـ ما الامر ...

رويت له ما حدث . قال :

ـ الديك الشجاعة في البقاء الليلة في البيت ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ تندر أنهم يريدون التنفيذ الليلة ...

ـ واذا قتلوني ...

ـ لا تخف ، نحن لهم بالمرصاد . نختبىء في الطابق الذي تحت بيتك ...

فكرت قليلا وقلت له : نعم ...

صممت على قبول التحدي . أردت أن انتهي أخيرا من الترقب والحيطة والخوف . أينما ذهبت أجدهم ورائي . أختفي وأبدل اسمي وهم يتبعونني كظلي . صممت على أن أموت أو ينتهي الحذر . فقد باتت حياتي أصعب من الموت .

عدت مساء الى الدار . وجدت مدام لاي تغسل وجهها .

قالت : نمت طويلا في غيابك يا أحمد بيي . ماذا قررت ؟

قلت : أبقى هذه الليلة .

ـ ابق دائما ... أقسم لك أننا سنكون أسعد مخلوقات الله . أذهب الان وآتي بخالد بيي كي تتعرف عليه . ستحبه كثيرا .

ـ لا . لا أريد ...

ـ دعني أفعل ...

ـ أتركي الامر للغد ...

دخلت غرفتي ولبست المنامة وقبعت في السرير . فتحت كتابا .
كنت آقرأ فلا افهم ... كان جسدي يرتجف جميعا . ترى لو تأخر الشرطة في الدخول ماذا يحدث ؟ كانت حياتي معلقة عـلى خط صغير ... قلت : آتي بسكين المطبخ فاضعها حدي ... ولكن ماذا تفعل المدية أمام مسدس ؟ ... قمت فأتيت بها وأخفيتها بين ثيابي كي لا تراها مدام لاي . وضعتها قريبا مني ... ارتفعت حرارتي • تصبب العرق على جسدي . رددت الغطاء عني . نزعت سترة المنامة ووضعتها جانبا . قمت من السرير • اشعلت لفافة وأخذت ازرع أرض الغرفة جيئة وذهابا . أمسكت بالموسى : حادة وكبيرة ... قد أموت هذه الليلة .. ماذا لو قتلته ؟ وترددت في ذهني كلمات هيلين : انه بائس ومسكين •.. وامتلأ قلبي رثاء له ولها ... أترك البيت ... ولكنهم يريـدون قتلي ، يعدون وراء دمي ... وقرع الجرس . أمسكت بالسكين • ثم ولا أدري كيف أردت أن ألبس سترة المنامة ... كنت أرتجف . وضعت السكين في فمي وارتديت السترة . رأيت وجهي في المرآة : كنت خارجا من البحر والمدية في فمي ...

خرجت من الغرفة واندفعت الى الباب ... فتحته مدام لاي فانزلقت الى المطبخ ... قادته الى الصالون فقفزت في خفة ذئب قبل أن يدخل ... كان المسدس في يده وسكيني في ظهره . قال :

ـ لا أريد بك شرا ...

* * *

ـ الق المسدس ...

القاه ضاحكا . قال : لم أكن أريدك أنت . ظننت هيلين في مخدعك فجئت أقتلهـا ... كنت في الطريق أرقب الدار . عندما أطفئت الانوار صعدت أرى ...

فتح الباب ودخلت الشرطة يرفعون مسدساتهم ووضعوا القيد في يدي خالد ومدام لاي قالت له : مجنون أنت يا خالد . ألم تعلم أني أطفيء الانوار ساعة التأمل ...

وسقطت دمعة على وجنة خالد . التفت الـي وقال : لست آسفا . استحق ذلك . كن على يقين أني لم أكن أريد بك شرا ...

هدأ البيت مرة آخرى . نظرت الـى المرآة . كان وجهي شاحبا . وضعت المدية بين فكي ، كنت قاتلا ... وبدأ الالم يأكلني. حاولت أن أنـام . مستحيل ... في الصباح قررت الـذهاب الى « ششنة » ... ولكن خطر القتلة زال ولم يبق غير خطر وحيد : أعصابي التي تنهشني كوحش ... لم تكن آلام رابعة شيئا ، لم يكن عذاب الحلاج وهم ينتزعون جلده عن جسده شيئا ... لم يقتلا أما انا فقتلت اثنين ...

اعترف خالد أمام المحكمة بكل شيء ... غير أن القضاة لم يصدقوا أنه دخل بيتي غيورا ، عاشقا لا قاتلا ... اما مدام لاي فقد جنت .

* * *

يرى المارة الآن من (جمهوريت ميداني) في ازمير عجوزا المانية ، ترود الميدان من اوله الى آخره وهي ترقص رقص السماح في حركة ثقيلة عجفاء وتروي بالالمانية أناشيد جلال الدين فلا يفهم أحد ما تقول ... تستوقفهم فتنصحهم بالذهاب الى قونية في تركية ممزوجة بانكليزية ركيكة ... تنام هناك تحت تمثال أتاتورك وقد وضعت قريبا منه علبة صغيرة يرمي فيها المتصدقون قطعا نقدية صغيرة تحملها الي خالد في سجنه ...

كنت أمر كل صباح بالميدان أشاهدها مـن حيث لا تراني

كأنما أذهب الى هناك كي أتعذب ... واقتربت منها ذات يوم . لم تعرفني .

قالت : أنت معذب ومسكين ... شقي شقي ... عيناك عينا بائس .. اذهب الى قونية .. اذهب الـى قونيـة .. كنت عاقرا وذهبت اليه فحملت ...

كان يبدو بطنها كبيرا . رفعت الستر وقالت : أنظر ... أنظر جيدا ، أنا حامل ...

لفت بطنهـا بخرق كثيرة كي يظهر عليهـا الحمل ، كأنها تخدع الله ...

ـ اذهب ... اذهب الساعة . لا تتأخر ...

ـ اذهب .. اذهب الساعة .. لا تتأخر ...

ـ نعم يا مدام لاي

ـ هيلين ... (رغم أنها لم تعرفني) .

ـ نعم يا هيلين ... أنا ذاهب الساعة ... نفسي حزينة يا هيلين ... أنا ذاهب الساعة الى قونية .

* * *

من طرق الباب ؟

من طرق بعدي الباب ؟

دعني أطبق جفني كي أرى أمسي الذي لا يريم بؤبؤ عيني ، يطوف به يكمن غلغل ريشه في جناح الليل الاسود ، يتألق بين لا نهايتين من أحزاني السرمدية .

لا تقل شيئا . لا تتحرك ... اربأ بيديك وجسدك ، بعينيك البحريتين . أن تخدش هذا الصمت الواهن الكئيب ... تجمد في قعدتك كنبي ياباني ، صلاته أن يحـدق باللاشيء حتى تنسرب روحه في العالم وينسرب العالم في وجوده ...

زا ... زين : صلاتك العجيبة ... من أين وجدتها ، أنت الذي الحدث بالصلوات ؟ تقبع كزهرة اللوتس بلا حراك حتى ليغدق عارضاك على الارض أريجها الموسوم بألق صباح راحل الندى .

لماذا باتت كل الصلوات الاخرى لا جدوى لها لديك ؟ ألانها صلوات في كلمات ؟ الان الكلمة ما باتت تعني شيئا ؟ لماذا ماتت الكلمات في هذا العالم قبل أن تخلص الانسان كطفل لفظته أحشاء آمه قبل أن يحول نبيا سويا ؟ نعم ماتت الكلمة قبل أن تشارفها ريح النبوة .

لماذا اختار بوذا أن يكون كزهرة اللوتس ؟ كل تماثيله قدت على شكلها ... ألانها توحي بالعدم ؟ كل ما حولنا فناء ... الكوب

الرقيق الذي تغمس فيه شفتيك (تبارك اذن الكوب) ، وهذا الجدار الخشن الصلد الذي يعتمده رأسك حين تجهده الافكار ... والبحر بكل زرقتـه وموجه ، الجبـال وقممها ، جسدك البهي القسمات ، عيناك ، عيناك أيضا والخال على خدك ... العالم جميعا آيل الي «النرفانا» ينحطم ثم يذوب فينتشر في الاثير السرمدي...

ليت الساعة تأتي ، تلك التي تحول فيها يدي والباب ذرات حية فنلتقي في عناق نوراني أبدي ، ظليل كزهرة لوتس ريا بالماء والارج والذهول . أوه ! من يدرك حناني ؟ من يلم بعشقي ، أنا الذي جن هواي كفتى معتوه القافية والنشيد ... أنا عاشق بابه صغير تسمر في صلاة دون كلمات كنبي ياباني ...

كانت الساعة ذاهلة عن الزمن ، تنقر على راحة سرمده دقاتها الرتيبة فما يطبق كنه ولا يتململ . ليته توقف عندما طرقت الباب فظللت معلقا على عتبته كشبح حي ... كان البيت كعهدي به لم يتبدل فيه حجر ولا لون ولا مقعد ، غير أن شجنا واجما غمس فيه كل كآبته .

وضع السائق محفظتي ورفض الاجر ... وجدني أضعف من أن أحملها ... كانت خفيفة تحوي ما اهترأ من ثيابي في الزنزانة وكتابين : القرآن وهكذا تكلم زارا ، كل الايمان وكل الكفر ، الخارج مع النور من أعماق الصحراء والرمال والآتي مع العاصفة من أعالي الجبل ... ورسالة عشق كتبتها بالدمع والدم والقهر ، مؤمنا تحن أعماقي الى الصلاة وكافرا أجدف بالسموات . كانت حروف صلاتي الكافرة تهوّم في قلبي منذ وقفت على باب القلعة اللئيمة .

* * *

جاءني طائف حبي في الظلام وأنا بين نائم ويقظان . أظل

يقلقني الحذر فلا أرقـد ، ويجهدني الارق فأغفل ، ثم أرتجف فأفتح عيني على أشباح أحلامي . ترود يقظتي النائمة كأنما هي أحياء تجيء اذا سهوت ، ترتعش حياة ما دام في عيني بقية وسن ... أعرفها ، أحدثها وعيناي نصف منتوحتين ، ألمسها باصابعي فأتأكد أنها هنا بين يدي روحا وجسدا . حتى اذا حملقت أختفت . أحول أعمى عن حياتي الحقيقية عندما أفتح عيني جيدا .

جاءني كسر من أسرار الابد ، ملفع بخفر النور ، خفيف الخطو جميل القسمات ، يزهو كأمنية طفل ، يتبرج بزرقة السماء وصفاء الاثير .

قال لي : قم ...

قلت : الى أين ؟

ــ الى حيث اخترتك . احمل معك كل خطاياك .

ــ أنوء بحملها وحيدا ... خطاياي ثقيلة ومميتة ...

ــ دقت ساعة أحزانك الطويلة .

ــ وينشق ــ اذا آذنت ــ القمر ؟

ــ لا يحفل بعذابك شمس أو قمر ... لا نجم ولا غيم ولا أنواء ، لا مد ولا جزر ... تطلع الشمس كعهدك بها فلا تراها . تزكم أنفك رائحة العفن اذا اشتد قيظهـا فتعلم أنهـا في الاوج وينضح جسدك عرقا ودما ... يحبو القمر قلامة ظفر صفراء ، ثم يغدو لجينا جليدي القسمات لا يأبه لعينك التي تحدق بالجدار وتهم بأن تنفذ عبر الصلد كي تغرق في سهوم أشعته ... والنجم غبي الطفولة ، يلعب بمـاء بحر السماء ، يلهيه طيشه عن جرحك وذنبك ... الغيم نـادر في الصيف وكذلك في الشتاء لانه يمرع

بالخصب . لقد رحل الخصب عن ديارك . تعيش في جدب الجدران الاسود . شهور الشتاء نفسها تكوي بلفح هجيرها كأنها تموز .

ــ والربيع والخريف ؟

ــ يجيء الخريف ويعود الربيع ولكنهما قصيران كومضة حتى ليبدوا لا ربيع ولا خريف .

ــ كيف أفرق بين الربيع والخريف والشتاء والصيف ؟

ــ الشمس تحسم بين الفصول وأنت تعيش دون شمس ، في ليل أسود يلتهب كجمر . أطبق عينيك حتى ينتهي الليل .

ــ لا جناح عليّ ما دام هنالك فجر ...

ــ ولكنه بعيد قد لا تكفي سنواتك لبزوغه ، لان الفجر ولادة والمخاض طويل .

ــ لم أخترتني ؟

ــ الليل في أعماقك ... المخاض والولادة ... معصيتك كبيرة كنار الشر وجليد الخير .

ــ أجهدتني خطاياي . من أين جاءني العصيان ؟

ــ يولد العصاة عندما يشيخ العالم ، يهرقون في عروقه دمهم كي يولد مرة أخرى .

ــ ويولد مرة أخرى ؟

ــ عندما يغدق العصاة آخر قطرة ...

ــ أأنت بشير بالموت ؟

ــ أنا بشير بالعذاب . أدفع بالعصاة الى السعير .

كانت الرؤيا جميلة وغامضة . لم أدركها رغم أني رأيتها ملء قلبي وجوارحي وعيني ، نعم رأيتها ملء عيني . حدقت بها حتى ليلمسها يقيني . كنت بين ظنين : فأل النور وشؤم الظلمة ، يزين لي الاول أن النذير وهم والرؤيا خداع مريض والثاني أن غدا معذبا قريبا يهم بولوج بابي ... وأشرعت روحي للآتي .

لم أكن عاصيا ولا سلكت سبل العصاة . من أين يجيئني اذن العذاب ؟

* * *

وضع السائق محفظتي . لم يأخذ الاجر مع أن يدي بحثت في جيوبي عن بقية مال : عرف أني لا أملك غير ثياب اهترأت بين البق والعفونة واليأس وكتابين : الايمان المطلق والكفر المطلق .

قال لي : لا أريد شيئا ... في المرة القادمة .

تراخت يداي . أية مرة قادمة ؟ فأل قانط ... كأنه يذكرني أني ذاهب مرة أخرى الى حيث كنت .

قلت له : وتنتظـــرني أنت ، أنت نفسك على باب القلعة ؟

— لم أعن ما عنيت . قد أراك في الطريق . قد تطلب سيارة من المكتب .

وناولني العنوان ورقم الهاتف ثم خرج من البيت عجلان لا يلتفت الى الوراء كأن فقر الجدران عضه بنابه .

* * *

عندما وضع السجان على يديّ خاتم السجن كي يفسح لي حارس الباب الاخير مجال الخروج ، قــرأت خطوط كفي مرة أخرى . كان الحبر يغطي خط السعد فما يبين له أثر : دفن خاتم

ـ شكرا .

ـ كم قضيت هنا ؟

ـ شهورا أربعة وبعض أيام .

لم يفهم جيدا . أقل الاحكام في القلعة ستة غير قابلة لحسم ربع المدة فهي هينة بنظر القوانين لا تستأهل اغراء سجين بالسلوك الحسن .

ـ أربعة شهور ؟ متأكد أنت مما تقول ؟

ـ عددتها ثانية ثانية . دخلت في أواخر حزيران ونحن في أول تشرين الثاني .

ـ خرجت بريئا ؟

ـ لا أدرى . خرجت كما دخلت .

ـ قيد المحاكمة ؟ بالكفالة ؟

ـ لا ...

أبطأ في سير السيارة . لم يخف عليّ أنه طلعة يستقصي . رأيت في عينيه حين التفت اليّ أنه لم يصدق قولي .

ـ ما هي التهمة ؟

ـ لا تهمة !

ـ كيف كان ذلك اذن ؟

ـ كان في الامر خطأ . كثيرا ما يخطىء القضاة .

ـ ولكن الاخطاء تنجلي في يوم أو بعض يوم .

ـ تلك أخطاء صغيرة . هنالك أخطاء أكبر من تهمة جريمة قتل . أخطاء لا تنجلي ولا تمحي . القضاة أنفسهم غير مسؤولين عنها . تولد معك ويرثها بعدك كثيرون . انها بعض من ذاتك ، من ذاتك .

ـ أراك اقترفت اكبر الموبقات . أظنك من العصاة .

ـ قل لي : من هم العصاة ، في أية أرض هم ؟ سمعت أنهم ماتوا : مـــاتوا جميعا . اختنقوا وهم يلهثون . استبد بهم نازع للزوال فجروا وراءه الى غابة موحشة . ظنوا أنها تمرع بالنور والخصب فــلم يجدوا غير جيف أكلت بعضــها الكلاب الجائعة وأسلمت ما بقي للعفن . ظلوا يجرون حتى خنقهم السراب والنتن . قل لي هل رأيت منهم أحدا ما دامت مهنتك تمكنك من معرفة كثيرين ؟

ـ انهم نادرون . تعرفت قبلك على أحدهم وهو خارج من المكان الذي خرجت منه . لم أره فيما بعد . كان غريبا . لمحت في عينيه أنه لا بـــد عائد . شغفني حديثه . أجيء كل يوم الى باب القلعة لعلي أراه أو أرى من كان مثله . أظنه كان مع الراحلين الى الغابة . من يدري ! ربما ابتلعه اليباب . وانت لماذا لم تذهب معهم ؟ في قدميك حنين معتوه للغابات والجيف ... كأني بالكلاب تنهش بعضا من جثتك وتترك بعضا للبزاة والريح والعفن ... أظن رائحة جثث العصاة تختلف عما عهدنا . أظنها تبعث على الحذر والدوار ..

ـ وتحب أن تشم رائحة جثتي ؟

ـ لا أعنيك بالتحديد . أعني عاصيا ما ، أي عاص ! لماذا لم تذهب معهم ؟ ذلك سر .

ـ تأخرت عن القافلة . كنت خائفا . مررت بالبيت كي أودع

الاطفال وبتيت هنالك أمدا . كانت شفتاي ترتعشان على خدودهم. قبلتهم حتى فني العصاة . وأتى الفتية عندما انتصف الليل فطرقوا الباب ثم جاؤوا بي الى هنا . متى تعرفت على الذي عنيت ؟

ـ منذ سنوات خمس ...

التفت السائق مرة أخرى ثم أوقف السيارة فجأة .

ـ لماذا وقفت ؟

ـ ولكنك أنت ، أنت نفسك . ألا تذكرني ؟

ـ ذاكرتي ضعيفة ...

ـ انك النسيان بعينه ... تنسى كالاطفال . ألا تذكر يوم خرجت نصف مقعد لا عجيب . كيف شفيت ؟ ظننتك يومئذ هالكا .. كدت أشم يومها رائحة الجيفة . صوتك فيه بعض من وهن الامس ولكن عينيك هما ، هما ...

ـ الآن ذكرتك ...

ـ ظننت أني وجدت عاصيا آخر ... سنوات خمس لم أجد سواك . كأني يوم لقتيك بدأت رحلة في صحراء لم أجد فيها غيرك بعد سنين خمس . كأنك العاصي الوحيد .

وانطلقت السيارة من جديد ، فلها كلانا عن صاحبه .

* * *

وجدت الباب لم يتبدل عن عهدي به ، لولا أن الصمت والجدب حفرا في خشبه خطوطا واجمة ذاهلة كأنها لوحة قدت ألوانها من اليأس .

لم يتحرك الصغار . كأني تركتهم منذ دقائق قليلة . تعوّدوا

أن أذهب فجأة فلا أعود الا في شهور . كأني لست من البيت ، بل ظلا تذهب به الشمس وتعود به اذا انحرفت للغروب . أغادرهم حين لا ينتظرون . أدخل دون أن أطرق الباب . يظــل المفتاح في جيبي . ولكني هذه المرة طرقت لأني نسيت المفتاح على الطاولة . نسيته كي أطرق الباب ، كي أنفض كل الوجوم والذهول عنه، كل عياء الفراق ، كي أبعث فيه الحياة ... أعرف أنه يبلى اذا لم تدغدغه أصابعي .

قالت لي الصغيرة : لم يطرق بابنا أحد . عجبنا لما فعلت . قلنا من الطارق ؟ ثم عرفنا أنك أنت لانك نسيت المفتاح . تفارقنا دائما كلص وتعود الينا كناج من الغرق .

قال الصغير لأخته : لا تكذبي . قولي له الحقيقة ... انهم يطرقون الباب كل ليلة . يجيئون والظلام . الخطوط التي رأيت لم يحفرها الزمن ، بل أظافرهم المتوحشة . يطرقون فنصيح : من ؟ فيقهقهون ويطرقون أيضا فنرتعد فرقا ، وتتجمع بعض على بعض حتى لنبدو كرة من هلع ... يطرقون فنرتجف حتى ينبلج الصباح، ثم نذهب صفر الوجوه الى المدرسة . كثيرا ما نغفو على المقعد . يعجب المعلم أني لا أحفظ درسي ، أني أنسى كل دروسي . الصلاة نسيتها والوضوء لاني استحم بالعرق البارد كل مساء ... اذا طرقوا الباب ماذا تفعل أنت ؟

كان الصغير يسأل عما يفعل الكبار اذا طرقت الباب الوحوش الضارية ، يظن أنهم يريشون سهامهم الى قلوبها أو يقطعون أعناقها بسيف . يحلم الصغار بالفرسان يجهلون أنهم ماتوا في غابة الجيفة والنتن .

* * *

استلقيت على السرير أحدق بالسقف ومرت أمامي السنون .

لماذا يولد الأطفال عندما يفنى الفرسان ؟ يولدون رغما عن عقر الأمهات ، يولدون كي يرتجفوا هلعا مـــن الوحش . ويحلمون بالفرسان الذين يشحدون أسنتهم عـــلى الهضبة . يظنون أنهم قادمون في غزوة عجاجها نور . يجهلون أن الهضبة جرداء يبست كل أوراقها والجذور .

ومرت الساعات . طرق الباب . استيقظ الأطفال . تلفتوا بعض الى بعض . هل ينكو ّرون أم ينهدون كي يشهدوا المعمعة ؟

قمت الى الباب وفتحته . تراجع الطارق . صعق كلانا لما رأى الآخر . تشنجت يـــده . ظلت معلقه في الهواء ثم انسبلت جامدة على جنبه .

قلت له : أدخل .

لم يستطع أن يرفض ، فقد عادت اليه طفولته . كان يجلس على المقعد الاول في مدرسة القرية . يصغي مستمتعا الى الدرس حين ألقيه . كان ذكيا وبسيطا وفقيرا . جلس حييا خجلا .

ــ لماذا تطرق الابواب ؟

ــ أنا في فترة الاختبار بعد ، أشق المراحل على الباحثين عن الخبز .

ــ منذ متى بدأتها ؟

ــ ما عدت أذكر . انها طويلة .

ــ متى تنتهي ؟

ــعندما تفل الاعصاب وينتهي الاحساس . يختارون لنا من نحب كي نطرق أبوابهم فنملأ قلوبهم رعبا . اختاروني لبابك . في

اون يوم ترددت . وقفت طويلا أمامه . أبت يدي أن تدقه . كانت مشلوله الطاقة ، عصية على الارادة . كنت جائعا . ثم رفعها الجوع فطرقت طرقات خفيفة لم تعجبهم فلم يعطوني ما آكل وظللت جائعا.

في اليوم الثاني جئت خائر القوة ضعيفا وما وصلت الباب حتى هززتـــه هزا عنيفا . حفرت خشبه بأظافري ونواجذي حتى انبلج الفجر وعدت اليهم فأعطوني كفاية يومي أو أقل . عدت الى بيتي ووضعت الطعام على النافذة ، أقلبه بين يدي وأمضغه بنواجذ لثيمة ، ابتلعه بنهم قافلة مجنونة . ومرّ أطفالك في سبيلهم الى المدرسة والنعاس يغلق أجفانهم ويرنح خطاهم كأنهم يسيرون نياما، يمسك كل منهم بيد الآخر ، فما زال الخوف يشدهم بعضا الى بعض وكأنهم التصقوا فباتوا كتلة واحدة وداهمني الغثيانفافرغت كل ما في أمعائي .

جئت في اليوم الثالث أيضا وضربت الباب حتى كدت اقتلع مصراعه وعدت اليهم في الصباح . لم يعطوني شيئا . كانوا يراقبون غثياني . أجهل أين كانوا ولكنهم يعرفون كل شيء . وصفوا لي كيف وضعت اللقمة الاولى ، كيف امتضغها الفم ، كيف ابتلعها البلعوم وكيف قذفتها الامعاء كأنهم كانوا في أعماقها .

في اليوم الرابع كنت محنط الروح . كأني كنت أحمل روحي معي في تابوت . كأني سرقتها من معبد فرعوني . كانت جامدة فاغرة الفم ، ميتة ، لا تتحرك ولا تحس ، كعظم في قبر ، كخشب الباب . وامتدت أظافري اليه فحفرت خشبه في يسر عظيم ... أظنني سمعت عويل الاطفال في الداخل وكأنه جاءني من عالم آخر .

في الصباح جلست على الشرفة أشاهد سيرهم الوسنان الى المدرسة . كان منظرهم مسليا وهم يسيرون كمنوّمين ، يتعثرون

كأنهم لا يتبينون الطريق فيرتعشون كمن استيقظ من حلم ، ثم يترنحون ... يترنحون بطيئي الخطو ...

وباتت تلك عادة . كل مساء أجيء . كل صباح أذهب . كل يوم أشاهدهم .

ذات يوم مرّوا متأخرين . اذكر أني يومئذ تركت الباب مبكرا . يبدو أنهم رقدوا بعـد ذلك . كانوا يسرعون الخطو ، وقرع جرس المدرسة فأجفلوا . ضحكت حتى انقلبت على قفاي . منظر المنوّم حينما يجفل مضحك . أليس كذلك ؟

ـ نعم ... ما زالت آثار الضحك على فمك .

ـ في كياني كله ... في يوم آخر كنت أتناول طعامي . ذلك اليوم طرقت الباب مبكرا وتركته في مهمة ثانية ، ثم عدت اليه متأخرا ... كانت فيّ نزوة جارفة ملحاح على أن أحطمه ، على أن أحطم كل شيء ، كل شيء ، كل حياة . كان بودي أن احرق العالم كله . لهاثي كان محرقا كالنار ، قاصفا كالرعد . صراخ اطفالك كان لذيذا على السمع . لـم يناموا تلك الليلة . عندما مرّوا كانوا يمشون نائمين . يلتصقون بعض على بعض ، يلتحمون وفي أقدامهم حيرة موتى . واحسست كأني موقظ موتى . أردت أن أنفخ في الصور لعل العالم يتحطم ، لعل القبور ترسل ما فيها من جماجم وعظام ، تقذف بكل موتها في وجه الحياة . صحت من أعماقي : « استيقظوا أيها الاطفال » .

قفز أطفالك جميعا قفزة واحدة ، هلعة في الهواء كأن حية لسعت أقدامهم وسقطوا على الرصيف كتلة واحدة وتكوروا ، ثم قاموا يترنحون فجمعوا دفاترهم التي تناثرت على الارض وهم متعبون مكدودون . يترنحون، نعم يترنحون . كان منظرهم مسليا

وانفجرت ضحكة من أعماقي ... قهقهت حتى العياء . ذلك اليوم كان غدائي كريما . أكلت حتى التخمة وفهمت أن مرحلة الاختبار دنت النهاية .

استدعاني الرئيس وربت على كتفي . شد على يدي واعطاني السوط ومنحني انسانا أجربه به .

كانت ساعة أسطورية . كأني ملك من الجان ، ولد من السعير ، يحمل في سوطه العويل والدم . انت تكره لون الدم . علمتني مقته . عندما انبجس على وقع السوط ذكرتك ولا أعلم كيف . وحال معذبي انسانا آخر . كان أنت ، أنت نفسك ، وهويت كشيطان موهوب لأنك أنت الذي جوّعتني . علمتني أن فن الحياة جوع وظمأ فجعت وظمئت ، عريت وحفيت . قلت لي أن مملكة الجوع والظمأ تسرع بالحياة والعطاء وتبدل العالم الى أفضل . لم أجد فيها غير الجوع والظمأ ، انخواء والجدب . صبغت عيني بألوان الوهم فما تريان الاشياء الا عبر الوهم ، والجوع والظمأ يلحان حتى العياء ...

أتذكر يوم جئتك قبل رحيلك عن القرية ؟ كنت جائعا . وانت كذلك . كنت جائع لقمة وكنت ـ جائع وهم ... وانتزعني الجوع من ملكوتك . بت شيئا من العالم .

ــ أراك تجاوزت مرحلة الاختبار .

ــ لا ! قلت لك انها طويلة . قد تكون أنت آخرها . لا بد لي من أن أخيفك أنت . يجب أن اراك من النافذة تترنح كمنوم ، يجب أن أصيح فتسقط أرضا وتبعثر على قارعة الطريق كل اوراقك ، كل أفكارك ، كل ذاتك . يجب أن أصيح فلا تستطيع جمع شعثها ، تتركها مبعثرة على الطريق بين أقدام المنوّمين الذين يمسكون بأيدي بعضهم هلعا وحذرا .

ـ ولكني بت كبيرا على طريق المدرسة !

ـ اذهب حيث شئت ، شريطة أن تسر من أمام النافذة ... اذهب الى الغابة . لقد تأخرت كثيرا عن قافلة العصاة . عند ما غادرت القرية ظننا أنك لاحق بها . كأني بك أبيت أن تفعل حتى الآن لان أحدا لم يكن ينتظر مرورك من تحت نافذة .

ـ ولكن العصاة حالوا الى جيف ونتن .

ـ ذلك مصيرهم ...

ـ بل مصير الجوع والظمأ ...

ـ ألست جائعا ... ألست ظامئا ؟

ـ بلى ، غير أن جوعي عصيّ على الموت ... ظمأي لا يفنى. ذهبت الى الغابة ، ردت كل مجاهلها ، كل جدبها وخوائها ، ثم عدت منها أشد جوعا ، اكثر ظمأ ...

ـ ولم تحل جيفة ؟ عجيب !

ـ لم أستطع . عند ما شارفتها حلت وهجا شفّافا عصيا على الموت .

ـ قيل لي ، قلت لي أنك لم تلحق بالقافلة وأنك لم تذهب الى الغابة .

ـ لقد امتنع يأسي على القوافل ، انه بريء من القطيع ، أعتى من أن يجد شريكا له ... لا يذهب العصاة في قافلة . كانت تلك قرية المتفائلين الذين يذهبون الى أن الغابة مطرح لهو وسعادة. دروبي شاقة ودامية ، من يحمل وعثاءها ؟ أنكر أني أذهب الى الغابة ، أنكر أني زهرة لوتس ، أخفي عنكم صلواتي ، أخاف أن

تذبحوها بأظافركم المتوحشة ... أذهب اليها في حذر لص ، أختار الليالي المظلمة السوداء . حين يعتم العالم ويهم بالانتحار ، ساعة تذرف العيون كل دموعها حتى لتجف فلا ترى ... عندما تضع الامهات حجارة على أكبادهن كي لا تتفتت جوعا ... لما يسقط الاطفال على الرصيف يراودني الموت والتأمل . في الليالي القاتمة السوداء الجليدية ، ليالي اليأس الذي كفر بكل شيء وآمن بكل شيء ، أذهب الى الغابة وحيدا ... وحيدا حتى الفناء فلا أجد على دربي أحدا . يأسي أني وحيد . سعادتي أني وحيد . أذهب الى الغابة كي أجد كل أحزاني ، تنتظرني هناك في قافلة أشباح سوداء . سوداء حتى العمى فأقبع على الشوك والعذاب كنبي ياباني ، أحدق كمنوم طرق بابه من المساء الى الصباح ، أحدق بالسواد والعذاب واللاشيء ، أحـدق حتى أبرأ ، حتى أتوهج كشرارة من الازل .

ــ متى تذهب ؟

ــ أذهب دائما ... كاد ينصرم عمري فيها . فالليالي السوداء كثيرة كثيرة ، لقد حال النهار ليلا أسود . قل لي هل رأيت ليلـة بيضاء ؟ أنا ما رأيت .

ــ الم تر عليـا هناك ؟ كان رحيله رائعا ... لم أغفل منه صغيرة ولا كبيرة ... أعجب بي الرؤساء فأجزلوا . كانت أصعب فترة في مرحلة الاختبار . أتذكر كيف كنا نجلس معا على مقعد واحد ؟ كان كلانا ظلا للآخر ، نختلف الى الدرس معا والى الملعب معا . نضحك ونلهو معا . أذكر كيف كنت تقسم بيننا الجوائز . كنت تفضل خطي . تقول أني ذواقة ، أني بذرة فنان . كان رحيله آية فني . كان يصر على الانكار فأفرح في دخيلة نفسي . كان دائما عنيدا ، منذ الطفولة . يشتد في انكاره فيلح الرؤساء بالاعتراف

فأستأنيهم . لم أطلعهم على رائعتي . كنت موقنا أنه سيعترف وأني وحدي قادر على أخذ اعترافه ولكن بطريقة عظيمة تحظى بأعجاب الرؤساء . أردت أن أذهلهم اعجابا .

كانت عندي مرحلة مرح . أوقظه بعد أن أنتهي من شحذ مخلبي ونابي ببابك فأذهب اليـه واوقظه . أسألـه فيمتنع على الجواب فأعمل في جسده الظفر والناب حتى يسقط أرضا .

ــ كان اذن يلهيك التحقيق عن رؤية الاطفال في طريقهم الى المدرسة .

ــ لا ! لا ! كنت أعود سريعا ... كنت في أوج اللذة . لم أدع فرصة تفوتني . وأنت تعلم أنه لا بد أن يعود المرء لبيته كي يتناول الفطور على النافذة . الأكل شهي صباحا بعد ليلة صعبة .

ــ صعبة ؟

ــ نعم صعبة ... جـد صعبة . لان المومياء تزداد موتا . تتشنج في تابوتها ساعة بعـد ساعة ... كـان الرؤساء يلحون فأستأنيهم . جعلتهم يتحرقون على لظى الانتظار . أقول لهم تريثوا، غدا ... ويأتي الغد فأقول غدا ، وهم يجرضون بريقهم . كانوا يخافون اصراره . يظنون وراءه خطرا . وكنت أعلم الا خطر وأن غروره يمنحه لذة الصمت . كان التعذيب يريحه مما يثقل ضميره .

عيل صبر الرؤساء وعلمت أنهم هموا بتعيين سواي . قلت لهم : « اليوم ! » ... تلك الليلة لم يطرق بابك . كنت في شغل عنه.

رتبت كل شيء . لم تغب عني الدقائق والتفاصيل . ما كان أسعد الرؤساء . أتينا بهيئة المحكمة . واستدعي علي . تلي عليه الحكم بالاعدام فـلم يرتعش . كان جامدا كوثن وتحركت يده

ناحيتي أن وداعا ... كان غبيا كما تعلم . لم يكرهني رغم التعذيب.

قدناه الى ساحة الاعدام ... التفت الي وقال : « لا تعصبوا عيني . دعوني أموت شجاعا ... أريد أن أرى موتي » .

ـ أنت على حق . كان غبيا .

أمسكت بيدي العصابة وشددتها على عينيه ، شددتها حتى احتقن حولها الدم وربطناه الى خشبة كمسيح أعمى .

واحد ... اثنان ... واحد ، اثنان ... تقدم فصيل الاعدام .. صحت : « نار ! » . وانحنى عليّ بحباله الى أمام مغشيا عليه ...

نجحت الحيلة . أطلق الجنود النار في الهواء أعلى من رأسه قليلا . حسب الاوامر . نزعنا عصابته وحباله ورششت الماء على وجهه . جلس القرفصاء كزهرة اللوتس ، كأنه من تماثيل بوذا وعيناه شاردتان . صوته كان شجيا ، جاء من عالم آخر ، من عالم ما بعد الموت ... كأني به مات وعاد من القبور . روى كل شيء كمن يحدث الله . قصته من الميلاد الى الموت ، حكاياتنا الصغيرة ، سرقة البستان ، الثياب المهترئة ، فقر الدم ، غثيان الجوع ، دوار الحرمان ، الحذاء المثقوب ، الاغماء الجائع ... قل لي ألا تذكر يوم أغمي علي وحدست أنه الجوع فأطعمتني ...

ـ أذكر جيدا ... كان ذلك غذاء يومي ...

ـ أعرف جيدا ... بيضتان . ما كان أشهاهما ... قال كل شيء . غرامه الذي أخفاه عني . كان حبيا ... ما زالت دعد على انتظاره . أظنك تعرفها ؟

ـ دعد تحب عليا ...

ـ بـلى ... !

ـــ شيء عجيب ... خيل لي الحدس أنها عاقر ...

ـــ من يعلم ؟.. لا أظن الامر يختلف كثيرا ... عقم الرحيل عــقر .

ـــ عم حدثكم أيضا ؟

ـــعن أحلامه . عن كل ما كان يريد أن يصنعه لو لم يمت . كيف كان يريد أن يبدل حياة البائسين ، أن تمرع الارض بالفرح والحب ... كان غبيا ... لم نأبه لذلك كله . لم يكن يعنينا من هرائه غير رفاقه . روى عنهم كل شيء فجئنا بهم أجمعين .

ذلك الصباح نمت مطمئنا . لم أستيقظ الا حين مرّ الاطفال أمام النافذة . أظنهم ناموا تلك الليلة .

ـــ قلت لي انه ذهب الى الغابة ...

ـــ لم يعنني أمره فيما بعد . تسلم تتمة التحقيق سواي ... قيل لي انه ذهب . لا بد أنه ... أين تريد أن يذهب بعد أن شردت عيناه وذهل صوته عن العالم كله ... قل لي : لماذا تذهبون الى الغابة ؟ ماذا تجدون فيها ؟

ـــ متـــع بسيطة وقليلة . نجلس كزهرة اللوتس . تشرد عيوننا . أصواتنا تأتي من عالم آخر .

ـــ ألا تأخذني معك اليها ؟

ـــ وما تفعل أنت هناك ؟

ـــ أنا مكلف بالتحقيق عما يجري فيها

ـــ ولكن هل انتهت مرحلة الاختبار ؟

ـــ لقد انتهت الساعة . ألا تعلم أني انتصرت ؟

ـ كيف ؟

ـ عندما دخلت دارك آذنت بالانتهاء . كنت بين اختيارين : العودة الى القرية أو النجاح . ولقد نجحت . عندما رأيتك ضعفت وعدت الى الطفولة . ألم تشاهد العرق الذي تصبب على جبيني ؟ نسيت ذاتي . عدت تلميذا صغيرا حييا أتعلم منك . أرى بعينك وأسمع بأذنك ... كدت أقول لك : « علمني مرة أخرى » وهتف جائع في أعماقي أن لا ، فتشبثت بموقعي وتحديت عينيك : هذه البراءة المخيفة ، هذا السحر الغبي الذي يوحي بعبث الاشياء . لقد تحررت أخيرا منـــك . تعذبت وأنا أتكلم ، كدت أحــول زهرة لوتس . لحظة ضعف ! نحن الاقوياء ننتصر على الضعف . لقد بلغت المومياء أوج موتها . محال أن تموت اكثر مما ماتت . بات بوسعي أن أعيش حياة الحجر التي لا تهزها ريح ولا يخدشها مطر ولا يجلدها زمهرير . بت آخر لا أنظر الى وراء ولا الى أمام ، الى التحقيق ، اليه وحده .

ألا تأخذني معك الى الغابة ؟ هذا التحقيق يستهويني حتى الارق .

ـ والباب من يطرقه ؟

ـ تلك مهمة صغيرة انتهيت منها أنا . لن أطرق الباب بعد الآن . سوف يطرقه سواي منذ الغد . الطارقون كثر .

ـ من يجلس الى النافذة ؟

ـ تلك متعة عظيمة ! معك الحق . لكني أؤجلها . عندما أعود مـــن الغابة أجلس اليها . مـــا دام هنالك طارقون استطيع الاستمتاع في أي وقت .

ـ وتظن أنك عائد لو ذهبت ؟

ـ طبعا ! طبعا ! ليس لي شأن بالذين تأكلهم السباع .

ـ وتأخذ معك المومياء ؟

ـ أوه . أظنها سبقتني . كأني أشم رائحة جيفتها .

ـ ولكنك تعلم أن زهور اللوتس هي وحدها التي تطوف بالغابـة .

ـ والسباع ... الوحوش الضاريـة ، الموت والعفن ... سوف أكون أول طارقي الابواب الـذين يجوسون معابرها ... سعادة أن تمتلىء رئتاي برائحة الموت .

ـ الغابة مخوفة تحفل بالاسرار . من يرودها يصبح آخر ، يبتلعه نهم الموت أو الحياة ... الحيـاة والموت سيان ... علـى مشارفها تمتلىء الرئتان بريح الفناء حتى ليصبح الانسان بعضا منه . الذين ماتوا ، ماتوا من أجل أن تأكلهم السباع . لم يحتملوا أن يجوع وحش . الذين ظلوا أحياء ، ما فعلوا الا كي يستمروا بالتأمل والالم ... لم يجدوا من يحمل وعثاء اليأس فظلوا مسمرة عيونهم على العذاب حتى يبلى العذاب .

ـ خذني معك ...

ـ كيف تسير بلا قدم ... كيف تذهب اليها دون معصية ؟

وشرعنا بالسير فبدأ تحقيقه مع الخطوة الاولى . قال :

ـ أنا لا أرى شيئا ... أنا لا أسمع شيئا

ـ لن ترى ولن تسمع .

ـ كيف اذن يتم التحقيق ؟

ـ عد الى طفولتك تسمع وترى .

ـ ولكن التحقيق لا يتم اذا عدت .

ـ اختر بينه وبين ذاتك .

ـ اخترت الاثنين .

ـ محال . اختر أحدهما . لا تستطيع أن تعبد ربين .

ـ لماذا اذن تحمل كتابين في محفظتك ؟

ـ يئست من الايمان حتى كفرت . يئست من الكفر حتى آمنت .

ـ كيف كفرت وآمنت ؟

ـ يأس الكفر ايمان .

ـ من أنت اذن ؟

ـ لو أني اله لقذفت هذا العالم عبر المجرّة كي يسود عالم الغابة .

ـ الجيفة والنتن ؟

ـ الشوك والدم . الجوع والظمأ ... العشق ، زهرة اللوتس .

نظر الى ساعته وقال : بعد قليل يقرع جرس المدرسة .

ـ فطور شهي ينتظرك على النافذة .

ـ كم أود لو أني على الرصيف . كم أحب مقعد الدرس . ما زلت جاهلا رغم أني كبرت ، كبرت كثيرا على السبورة ورتل البائسين الصغار . كبرت على القرية .

قال الصغير لاخيه : كان أبي فارسا من فرسان الغابة .

قال أخوه : مـا زال أبي فارسا ، سوف تسمعون الموت . انتظروا قليلاً لن يدع أحداً يطرق الباب . سوف ننام ملء عيوننا .

ــ لن نهوي على الرصيف .

ــ سوف يمتشق حسامه .

ثم طرق البـاب . هزّه القتلة حتى خلعوا مصراعه وصاح الاطفال وتكوّروا بين ذراعي وأنا معهم على طريق الغابة كزهرة لوتس ، عيناي مسمرتان على القتام واليأس .

زا ... زين . صلاتك العجيبة ... تسمر كزهرة اللوتس . لا تقل شيئا . عبقري ذلك الياباني الذي علمك هذه الصلاة . لم أره في الغابة . قد يكون من انبياء اليأس والمعصية .

اربأ بعينيك البحريتين أن تخدشا صمتي الواهن الكئيب ... دعني أحـدق عبر المنفى وعبث الوجود . انتصف الليل . القتلة يطرقون الباب . لا أستطيع صبرا . أنا لا أقوى عـلى كل هذا العذاب . لست الها .

لو أني اله لقذفت بهذا العالم عبر المجرّة . لو أني اله !

« دش تبيبي »

« دش » تعني بالتركية سنا آما « تبيبي » فهي طبيب خففت.

لم يكن زميلي من الجيل الجـديد . الجدد يكتبـون على بطاقاتهم واليافطة « دش دكتورو » . كلمة طبيب قديمة عليهم . ذهبت الى الجحيم . تعود أحيانا على الشفاه في الحديث فتقابل بابتسامة ساخرة . رحلت عن آخر القواميس التركية دون ضجة .

يبدل الاتراك كل سنة معاجمهم حتى تصفو لغتهم من العربية ولكن نصف صفحاتها وأزيد ما زال عربيا . مهمة شاقة . من ينبش القبور لا يصنع حياة جديدة ! وسم موتى العصور حياتنا بما لا يمحى . الماضي أعمق ما في وجودنا .

أظن زميلي من جيلي . أبدو أصغر منه عشرين سنة . أمر كل يوم بعيادته أربع مرات فأتأمل اليافطة التي حالت ألوانها والرحى التي تتدلى في أسفلها تدل على هوية الدار لمن لا يقرأ . انه سر المهنة . أجهل لماذا ينسجم مع القاموس الجديد . ربما كان ذلك تواضعا .

سألني صاحب الفندق وهو يسجل اسمي: «دش دكتورو ؟»

ـ أوت أفندم .

وروى لي حديثا طويلا فهمت منه أن « الدش تبيبي » في كوش أداسي صديق له . بعد أيام قال لي : تعال نزوره .

لم أفهم اذا كان ذلك اقتراحا منه أم من زميلي . كان هذا يعرف بعض الفرنسية وتحدثنا طويلا وأغرقنا بالضحك . كنت أنا في واد وهـو في آخر . يضحك كلانا مجاملة . كنت أمهر منه بالتعبير . فقد علمني الرجل مهنة عجيبة : التحدث بكل اللغات التي أجهلها . تسعفني يداي وعضلات وجهي .

كان طبيبا متوسطا في كل شيء الا حجمه . سألني :

ـ ماذا تعمل هنا ؟

قلت : أبحث عن عمل ...

قال : أنت أجنبي لا تستطيع العمل أبدا في تركيا ...

كدت أقول له أني أطوف العالم بحثا عن عمل ولكني أجنبي أنى حللت .

بات يدعوني كلما مررت بعد الظهر بعيادته فرآني . لم يكن يبيح له زبائن الصباح فرصة الاستمتاع بصداقتي . كان يبدو عليه أنه لا يصدق أني فعلا زميل له . طبيب دون عيادة ؟ كانت قهوته طيبة . نجلس في المختبر : هو على طاولة العمل ينضد الاسنان على الشمع وأنا أمامه أحدثه عن طريقتي الخاصة في صناعة الاسنان وهو يهز برأسه مظهرا القناعة بأقوالي دون أن يفهم نصف كلماتي.

كان زميلي محترمـا في « كوش أداسي » يحييه الناس في خشوع أنى حل ، غير أن زوجته كانت تحظى بتقدير أعظم .

كثيرا ما كنت أراها في الصباح تراقب صغارها وهم يلعبون في الجنينة الصغيرة وقد جلست ، في أبهة ملكة ، عـلى كرسي يفيض عنه جسدها على الجانبين . كانت وقورة زوجة زميلي . باتت تومىء لي برأسها تحيـة اذا صادفتها في الطريق وكثيرا ما كنت

اراها تقرع الابواب في اتزان لا مثيل له فتخرج السيدات للقائها وكأنه شرف عظيم أن تحل في بيوتهن . ولكن اكثر الناس احتراما لها وربما خوفا منها هو زميلي . اذا نظرت اليه شذرا ارتجف وان ابتسمت فتح فاه حتى ليكاد ينشق .

* * *

قلت لزميلي : كم تربح في الشهر ؟

قال : هنا أم في آزمير ؟

كانت له عيادة دائمة في أزمير ، أما عيادة « كوش أداسي » فهي لشهور الصيف لان زوجته تحب « كوش أداسي » وتفضل هدوءها على صخب تلك .

قلت له : هنا .

فكر قليلا ثم أجاب : لا أدري على الضبط . دعني أحسب .

وجاء صوت زوجته راعبا : محموت بيي ، بير أدام ... (محمود بك ، هنالك شخص ما) .

ونهض فبدل رداء العمل وهرول يدفع بطنه قدامه ليستقبل الزبون . عجيب الانسجام الجسدي بينه وبين زوجته . أقدر أن وزنهما متكافيء فهو أطول قليلا منها وهي أعرض . وطال غيابه .

صاح من العيادة : أحمد بيي ...

جئت اليه . قال : هل لك في مساعدتي ؟

كان المريض على الكرسي ــ وقد قلبه زميلي ــ بلا حراك والدم يتصبب على الذقن والمــاء يبلل وجهه وصدره . والقدمان أعلى من الرأس ، حسب ما تقتضيه حال الاغماء . أستقرت عيني

على حذائه الكبير المثقوب وقد ظهر منه بعض من باطن القدم كعين ذليلة عمياء ، أغلقت جفونها الى الابد على مهزلة الطريق التي يدوج عليها البشر .

قال زميلي : حالة اغماء فريدة . أنظر .

كان الزبون طويلا عريض المنكبين يــداه موسومتان بعناء الحقل والقوة الخارقة ، شعرهما شعر ذقن غفل عنها الحلاق أيا ما . عروقهما زرقاء ملتوية كدروب المنفى .

قال : ماذا ترى يا أحمد بيي . أحقنته بالكافيين فلم يصح .

عالجنا الرجل فصحا ووضع يده على خده ، يلوح برأسه ذات اليمين واليسار يهمهم بالالم ولا يصيح كبرا . كانت الرحى التي يود خلعها زميلي صلبة قوية من أعماق الاناضول قاسية كأنها قلب من قلوب غزاة القرون الوسطى ، عالجها شدا وارخاء حتى سحقها .

قال : ما رأيك ؟

قلت : انه جائع . سله .

قال الرجل : لم آكل منذ البارحة .

قلت : أطعمه .

دخل مترددا الى عند زوجته . ثم أتى له بكسرة خبز وجبنة . اكل الزبون ودخن لفافة .

قال : والآن ماذا ترى ؟

ــ لا بد من فصل الجذور .

ــ مستحيل ، لا أستطيع تخديره اكثر مما فعلت . أنظر .

كان التخدير كاملا .

قلت : فلنفرق الجذور .

كنت متأكدا أن زميلي ضعيف في الجراحة وأنه وقع على حالة صعبة . لم أجرؤ على المحاولة . أردت أن يطلب مني حتى أقدم . وكان الرجل ينظر اليّ بعين مستجير .

قلت : ليدلك أحدنا قلبه وأطرافه وليعمد الآخر الى الخلع .

وانبرى الى القلب تدليكا عنيفا ففهمت أنه ترك لي المهمة . وعالجت الرص قليلا فخرجت من الفك كأنها ملت المكوث فيه . لم يكن ذلك عن براعة ولكني لا أعرف ما حدث .

***

كثر أصدقائي في « كوش أداسي » ، تبدي عيونهم لي الودّ ويتسلسل اللسان في بعض كلمات انكليزية مما يتعلمه الذين تؤم قوافل السياح أرضهم . ما عدا موظف الاستعلامات في بنك « آك دنيز » . مل ترددي عليه كل صباح .

ــ هل جاءت الحوالة ؟

ــ لا .!

يقولها ممتعضا كأني أختلس بعضا من استرضائه البليد وتثاؤبه . صرت أخاف رؤيته . ولكن ما أفعل ؟ فقد وصلني الاشعار منذ أيام عديدة وبدأ الشهر يجري سريعا الى نهايته . ساعاته تمضي في ثوان . ما أكاد أستفيق صباحا حتى يحل المساء ، ثم الصباح ، ثم المساء ، كأن جنيا يدور بها في سرعة صاروخ .

كل موظفي البنوك لطيفون في تركيا ما عدا هذا الذي ما

يطبق فاه حتى يفتحه عريضا واسعا ، كأنه لم ينم منذ عهد بعيد . كنت مهذبا معه ، لطيفا وحييا . أنحني انحناءة كبيرة وأبتسم ابتسامة رائعة عند ما أواجهه في الصباح ، أعتني بهندامي ، أحلق ذقني ، أضع افضل ربطة عنق ، أزرر السترة ، أصنع المستحيل كي أبدو لائقا لديه ولكن عبثا . يبدو أن سحنتي لا تستهويه - لماذا ينفر مني ؟

لقد بدّل المنفى وجهي كثيرا . حفر فيه الاخاديد وانبرى الى صدغي بريشته البيضاء يرسم عليهما لوحة الافول مع أني ما زلت وسيما ... هكذا قالت « جين » ففرحت فرحا عظيما . كدت لا أصدق ... كدت أنسى اشعار البنك والشهر الذي يعدو وصاحب الفندق الكبير الرأس ، الطيب القلب ، الصارم في معاملته ، الذي حدّد اليوم الثلاثين للدفع ، لا قبل ولا بعد .

***

وقفت أمام المرآة . كانت « جين » على حق . منحني الشقاء جمالا بائسا وحزينا ... يبدو أن وجه المصلوب يبلغ ذروة الجمال ساعة الحشرجة ... ما زال آخر الشهر بعيدا ... بيننا وبينه اكثر قليلا من أسبوع قد يصل فيها الاشعار وقد لا يصل .

أطلت الوقوف أمام المرآة أسألها عن سر الوجوه التي تذوي على جمر التثاؤب البليد ، عن سر عابري السبيل الذين يشاهدون موتك فلا يشعرون ، ثم تندّ عن أحدهم بادرة ، قد لا تعني شيئا ، فتستوقف موتك وتزهو في رعشة خفية على العقل ، حتى تهم بك موجة أخرى من أمواج بحر اليأس .

تعرفت صدفة على « جين » . المنفى كله صدف . عالم من المعجزات يقف وراء بابه . والبؤس يمنح طاقة عجيبة على التفاؤل .

تنتظر دائما جديدا وهو يجيء اليك ولو أغلقت المصراع بالفرتاج.

كنت في طريقي الى البنك وحيدا ومعي الوجل والتردد من هذا المتثائب الذي يطردني مـن مكتبه بنظرته الجامدة الغبية. رموش عينيه كآبر النحل لا تتبينها الا لماما ولكنها تلسع بسم قاتل.

ناداني رئيس دائرة السياحة. قصير وثرثار مهووس بهندامه. رموشه تختلف عن ذاك طويلة وسوداء: الشيء الوحيد الجميل فيه. مدور، مكوّر على بعضه، بسيط وقريب الى القلب كامام جامع. له أسعار خاصة في المقاهي.

ظنني فرنسيا يوم تعرفت اليه حتى اذا عرف هويتي اصبحت كاتم سره. حدثني عـن مغامراته العاطفية واقبـال النساء عليه وافتتانهن به. كنت أضيق بحديثه فأتذرع بالصبر. كان ما ينفك يقارن بيني وبينه:

ــ لو لم تكن عيناك صغيرتين لنجحت مثلي. لولا ميل في مشيتك كمصاب بالدوار لاصبت بعض الحظ. لو كنت بارع الحديث مثلي مع الفاتنات لما ظللت هكذا في عزلتك كمطرود من الجنة لم تقبله النار ...

وأنا استمع اليه مؤمنا ومؤكدا

في اليوم الاول دخلت مكتبه بحثا عن مطبوعات. لم أجد غير الآذن الذي أشار الى رئيسه. كان هذا في مقهى مقابل مع بعض من السواح. حييته، فدعاني للجلوس. اعتذر فأكرهني. كان يتحدث عن الآثار في منطقة « كوش أداسي »، ثم آل الحديث الى صعوبات الوظيفة، ثم الى العشق والنساء ... هو المعشوق وهن المتيمات . .

سألته سائحة: كم فرنسية أحبتك؟

قال : تعنين في هذا الصيف أم في حياتي ؟

ــ أعني في الصيف ، فليس معقولا أن تعرف عددهن كلهن..

فكر قليلا وأجاب : أربعة فقط ...

ــ أوه ... أنت مقتصد ...

قالتها في خبث ساخر ، فضحك القوم وكان هــو أشدهم قهقهــة .

***

لم اكن راغبا في التحدث معه وأنا في طريقي الى البنك . كانت هموم الاسـفار والشهر وصاحب الفنــدق الذي استغل وجودي كــي يتعلم الفرنسية فاشترى كتب المبتـدئين وأخـذ يستوقفني كلما رآني داخلا أو خارجا. أعلمه الدرس الاول صباحا وأعيده عليه مساء حتى اذا انتقل الى الثاني فتعلمه نسي الاول .

قلت له من الشارع : سأعود اليك بعد قليل .

جاءني يهرول . قال : أنا بحاجة ماسة اليك . ألست « دش دوكتورو » ؟

قلت : بلى ...

ــ تعال ... تعال .

وشدني من يدي الى المكتب . وأضاف : « انها انكليزية رائعة ... رائعة كليرة ذهبية » كانت « جين » رائعة كليرة ذهبية ، كتاج على مفرق بحر ...

ــ افتحي فمك .

كانت الرحى الاولى العلوية مخورة . قلت :

ـ لا أفيدها شيئا . يجب أن تذهب لعيادة الطبيب .

ـ ولكنه حمار ولا أريد أن أدعها تذهب لازمير للمداواة .

ـ ...

انتظر أن أقول شيئا . ظللت صامتا . قال :

ـ عندي فكرة ، نذهب معا الى عيادة الطبيب . تقول له أنت أنها صديقة قديمة تعرفها من انكلترا وتستميحه في مداواتها .

ولم ينتظر جوابي . قال : « هيا » . وسرت معهما .

وقف زميلي يتفرج وأنا أعالجها . بعد أن انتهيت ربت على كتفي مبديا اعجابه ثم علق على طريقتي وقارنها بطريقته مفضلا هذه على تلك في تواضع جم وتلميحا لا تصريحا . ثم دار الحديث بالتركية بينه وبين رئيس دائرة السياحة. قال لي هذا بعد أن انتهيا:

ـ لم لا تعمل مع الدكتور ما دمت مقيما هنا وما دام يفضل الاهتمام بعيادته في ازمير ..؟

قلت : حبذا ... ولكن القوانين لا تبيح ...

قال : لا عليك ... ضابط الشرطة صديقي . سوف أتفاهم معه . لا أظنه يمانع . أنا متأكد .

ـ أترك الامر لك ...

قال زميلي : وأنا أريد أن أدرس الامر مع زوجتي .

نظر اليه فاتن السائحات في احتقار شديد كأنه يقول : « وما شأن المرأة ، انها سقط متاع » . وخمنت أنه امتنع لان « جين »

كانت معنا ، فارعة الطول وقد توردت وجنتاها بعد أن ذهب الالم، كوردة افريقية . كان الى جانبها قمينا كمهرج أمام تمثال يفتن في تمثيل دور العظمة كي يبتسم الحجر .

كانت تتململ مشوقة للبحر وهو يطيل ويترجم لها كي تؤمن بعظمته . ضابط الشرطة صديقه فما لها اذن وللبحر ...

* * *

ناداني زميلي وأنا في طريقي للبنك . دخلت . قال لي :

ــ انتظر قليلا في المخبر ...

وبعد أن انتهى من زبائنه دعاني للصالون . كانت زوجته تتصدر القاعة كصاحبة حمّام قديم . سألتني :

ــ ماذا تفعل هنا ؟

ــ لا شيء ؟

ــ لماذا أنت هنا ؟

لقد بدأ التحقيق . يكره الاتراك السياسة ويخافون السياسيين .

ــ أنا فارّ ...

وقف فنجان القهوة قبل أن يصل شفتيها كأنه معلق في الهواء وجحظت عيناها ...

ــ نعم أنا فارّ ... خوفا على سمعتي ... خسرت ما أملك ، كل تجارتي ...

ــ أنت تاجر أم « دش تبيبي » ؟

ـ أنا « دش تيبي » . اشتغلت بالبورصة .

ـ مقامر ؟

ـ مغامر ...

ترجم لها زوجها . جرضت بريقها . ظهر التردد على وجهها . لن يستخدمني . لم يصل التحويل . لا بد من حيلة ، لست محتالا . تلك الساعة كنت كشاطر السوق الذي يتلاعب بورقات لعب ثلاث يبتز دراهم الذين يظنون بأنفسهم الذكاء ، تسقط أيديهم دائما على ورقة غلط . ثم يفاجأ بمن يربح ضده ، فيكتشف أنه الآخر يمتهن نفس الحرفة ولكن بعد أن ذهب ما جنى في يومه .

ـ أغراني الكسب بالمغامرة . البورصة شيء باهر عندما نربح وقليلا ما نربح . كانت تجربة خاسرة ومخيفة . لقد تبت . لن أعود لها أبدا. اتيحت لي فرص كثيرة فلم أفعل . توبتي نصوح. نذرت أن أذهب للحج فأكفر ما سلف من ذنبي ...

وامتعضت بيني وبين نفسي . كيف أروي لهـا أني سأحج وليس في جيبي غير زاد أيام قليلة . استمريت :

ـ نعم توبتي نصوح لن أغامر بعد الآن . مللت . تعبت . أريد أن أهدأ . أريد أن أنام ملء عيني . منذ زمن بعيد لم أنم كما ينام الآخرون يا سيدتي .

لمحت في عينها الرضى والرثاء . التفتت الى زوجها كأنها تسأله رأيه فلم يقل شيئا . فلقد عودته ألا يكون ذا رأي . قالت :

ـ مر بنا غدا صباحا ...

وذهبت الى البنك . لم يكلف نفسه موظف الاستعلامات عناء الجواب . زم بشفته أن لا ، وتثاءب واضعا قفا يده على فمه .

وفي اليوم الثاني مررت مبكرا وتسهلت عندما اقتربت من العيادة أؤمل أن يناديني فلا أطرق بابه . كان ينتظرني وزوجته .

ــ تفضل .

دخلت . حملت الخادمة القهوة فشربناها دون أن نتكلم غير كلمات من هنا وهناك لا علاقة لها بالموضوع الذي يقلقني ولا تعني شيئا عند من ينتظر تحويلا بطيئا كأنه عزم على المجيء الى تركيا على جمل كسول . قالت السيدة :

ــ اقلب الفنجان ...

ــ أوه ! عظيم تقرأين الفنجان ؟

ــ نعم .

أمسكت به بعد مـا جف وحملقت بوجه زوجها ثم قالت : شوك كوزال ...

وناولته اياه . قلت :

ــ وأنت تقرأ الفنجان ؟

قال : نعم ...

ثم تفحصه جيدا وأضاف : شوك كوزال ...

قالت السيدة : وافقنا على أن تعمل معنا ... الفنجان جيد . يذهب زوجي الى أزمير وانت تعمل هنا . ولكن أنا الذي احاسب لا أنت . المغامرون لا يؤتمنون على دخل عيادة ...

ــ ولكن يا مدام ماذا تعنين ؟

ــ لا أريد أن تفهم أني أعني شيئا سيئا . المغامرون يحبون

الفقراء . لا يأخذون منهم أجرا وأنا عندي أولاد أهتم بهم أولا . أما أنت ... أوه أحمد باي أراهن أنك تجوع من أجل الفقراء اذا اقتضى الامر ...

ــ ومن أجل غيرهم يا سيدتي ... معك الحق .. وماذا أيضا في الفنجان ؟

ضحكت وقالت : لم أتعود أن أقرأه للآخرين ، لي ولزوجي فقط . أما أنت فقد بت من العائلة .

اسمع : حظك كبير ... تاج على مفرقك ...

ــ على مفرقي ؟ أنظري جيدا يا سيدتي . مم صنع تاجي ؟

ــ لا أستطيع أن أتبين مادته في القهوة . التاج في الفنجان رمز . فأل حسن . لا بد أن يكون ككل التيجان ، من ذهب مرصع باليواقيت والماس .

قلت لها : ارينه في الفنجان ...

ونظرت . خدعها الفنجان كما تخدع ساحرة شمطاء بسيطي القلب . لم يخدعني أنا . لم يكن من ذهب ولا رصع بجوهر . كان من ابر أحسست وخزها في جبيني .

ــ أمامك طريق واسعة . غريب ... أنت مزمع على سفر ... ستسافر . طريق واسعة كلها خير وبركة ...

كل طرقي واسعة وعريضة وطويلة . تبدأ ولا تنتهي . أنا مزمع أبدا على السفر ، أرحل حتى ليجهد مني الرحيل ... طرقي كلها خير وبركة ولكم تدمى على وعثائها قدمي .

ــ بعد اشارتين يجيئك خبر عظيم . يومان أو اسبوعان أو شهران ...

ــ أو سنتان أو قرنان .
ــ لا . مستحيل . يتنبأ الفنجان شهورا فقط .
قام زميلي مودعـا وسلمني الرداء الابيض . كان فضفاضا يتسع لاثنين مثلي فشددت زناره وبـدأت عملي أحلم بالطريق والسفر والتاج والتحويل .
جاءت « جين » ذلك اليوم يرافقها رئيس مكتب السياحة . شاخ المسكين في أيام وتغضن وجهه . لم يخف عليّ أنها برمت به تستثقل ظله .
قالت لي : متى انتهي من العلاج ؟ أرجو أن يكون سريعا ...
قال : نعم يجب أن يكون سريعا .
وغمز بعينه ففهمت انه يطلب مني ان استأني . شيء محرج فأنا مديـن له بعملي .
قلت : آنستي سأحاول ...
وقف صديقي ينظر الي وأنا اداويها . يرتجف اذا لامسـت يدي وجهها . يحصي علي كل حركاتي . وكانت هي تتأفف . قال هامسا عندما انتهيت :
ــ ابطيء قدر المستطاع . انها امرأة شسوس .
وخرجت وهو يجر قدميه وراءها كأنه انا خارج من بنـك « آك دنيز » .
كان ربح العيادة طيبا ذلك اليوم . لم تعطني السيدة شيئـا عنـد الظهـر . في المساء ناولتني ثلاثين ليرة .
سألت نادل المقهى وأنا اجلس للعشاء ، كم يربح في اليـوم
سألت نادل المقهى وأنا اجلس للعشاء ، كم يربح في اليـوم.
قـال لي :
أفٌ . أترك هذه البلدة . ألا تدلني على بلد استطيع العمل

فيه ؟ اربح هنا خمسا وعشرين ليرة فقط . يطعمني صاحب المقهى بين الحين والحين ولكن ذلك لا يحسن وضعي كثيرا . خمس وعشرون ليرة ليست شيئا وانا فوق ذلك اعرف الانكليزية كما ترى .

ثم جاءت « جين » واستأذنت بالجلوس . قالت لي :

ــ اريد ان احدثك يا دكتور في امر هام ...

ــ تفضلي ...

ــ اعرف ان ذلك سيزعجك ولكن لا حيلة لي بالامر . انت مثقف تدرك الامور وتعرف العواطف والحب . كيف تكره المرأة وكيف تعشق ... انا في مشكلة صعبة وانت وحدك قادر على حلها.

ــ انا كيف يكون ذلك ؟

ــ قد لا اعني عندك شيئا ... ولكنك في هذه الفترة تعني عندي اكثر مما تظن ...

ــ أنا ؟..

ــ نعم أنت ...

ــ أنا اتعذب يا دكتور ... انا جد حزينة .

ــ أؤكد لك اني اساعدك اذا قدرت .

ــ وجداني يعذبني من اجل نوري باي .

ــ أي نوري باي ؟

ــ ألا تعرف ؟

ــ لا ...

ــ مستحيل . هل تضحك مني ؟

ــ أؤكد لك اني لا اعرف ... من هو ؟

ــ رئيس دائرة السياحة ...

ــ عرفت اسمه منك الآن ...

ــ زعم لي انك اخلص اصدقائه وانك تحبه حتى العبــادة . يأتمنــك على أسراره وتأتمنه على اسرارك .

ــ انا ؟ لقد ساعدني فعلا ولكننا لم نتحدث ابدا عن اشيائنا الخاصــة .

ــ ولكنه روى لي عنك ما لا يعرفه الا مؤتمن على سر ...

ــ ماذا روى لــك ؟

ــ الست فارا مــن وطنك ؟

ــ لم اقل له ذلك ...

واقتربت فعالت في نصف حس : قال لي انك قتلت المــرأة التي تحب ...

ــ أنــا ؟

ــ نعــم أنت ...

ــ انظري الى يدي يا آنسة ، انهمــا نظيفتان وبريئتان . نعم أنا فار من وطني لان يدي نظيفة وبريئة ...

ــ أوه ... غريب امر نوري باي . قلت له : عيناه ليستا عيني قاتل ، أجاب بأني غرّة ضعيفة الحدس ... لماذا حدثني بمثــل هــذا الحديــث ؟

ــ ربما ان يبتدع قصة كي يسليك وأنا موضوع قصــة طريف . كثيرون الذين يسمرون على تفاصيلها ... هــذه هــي المشكلة ؟

ــ لا . أنا لم أشرحها بعد . انه يحبني. عرض علي الزواج ..

ــ ولم لا ؟ انه شاب طيب ، قادر على انه يؤمن لــك حياة مريحــة ...

ــ لكني لا أحبه . على العكس اكرهه رغم أني اعطف عليه. اجده ثقيل الظل متعبا . يلاحقني انى حللت . يهمل عمــله كــي

يجري وراني . ثم يصبح من المجموعة التي أتيت معها . نذهب الى المنعم فينضم الينا ... الى الملهى نراه سبقنا ، في المسبح يجلس على الكرسي يشاهدني حتى انتهي . يرافقني حتى الفندق . هذا النهار وجدته في الصالون عندما نزلت . كانت عيناه حمراوين . أظنه لم ينم . أجلس معه احيانا كي لا افجعه فيحدثني احاديث عجيبة عن الموت والانتحار والقتل . انه يخيفني . اجهل ماذا افعل .

رق قلبي لنوري باي وحرت حيرة « جين » . ماذا يمكن ان افعل من اجله ؟

بت في ايام قليلة معروفا ومرموقا في « كوش اداسي » . يحييني الناس في خشوع من يتوجس خوفا من آلام اسنانه . موظف البنك يقف لي احتراما قبل ان يقول لي :

ـ لم يصل التحويل يا دكتور ...

واقترب آخر الشهر . قلت في نفسي : أطلب سلفة من السيدة كان ذلك يوم السبت الذي يعود فيه زوجها من ازمير . دعتني للغداء احتفاء به .

جاءت « جين » وحدها . سألتها :

ـ كيف تجري الامور ؟

ـ شيء رهيب ... مخيف ... لا يطاق . افر منه كمجرمة من الشرطة .

اصبحت حكاية نوري باي اشهر حكايات الموسم السياحي . اذا مر بالناس آسوا له وتبدى الحزن العميق على وجوههم وهو ذاهل مهموم تكاد الدموع تطفر من عينيه ، غير انه بقي انيقا . قلت لجين : افكر بنوري باي دائما ... يجب ان ننقذه .

ـ كيف ؟

ـ ألا تستطيعين ترك « كوش آداسي » ؟

ـ غير ممكن . أنت تعلم ان المجموعات السياحية ليست حرة في تحديد رحيلها .

وحانت مني التفاتة الى الشارع عبر النافذة . كان نوري باي قادما يجد في سيره كأنه يعدو ورأسه يلوح من نقلة قدميه .

قلت لها : ها هو جاء ...

فانتفضت كملسوعة . طرق الباب ودخل قبل ان آذن له ووقف يشخر ويجرض بريقه كأنما اراد ان يفاجئنا وهو يريد ان يقول شيئا فلا تسعفه الكلمات . انتظرت حتى هدأ .

ـ أهلا نوري باي . كيف الحال .

ـ شكرا يا صديقي العزيز . وأنت ؟

ـ لا بأس .

ـ هللو جين !

ـ هللو ... قالتها فاترة ممتعضة .

انتهيت من المداواة وقلت : تجيئين الاثنين . التفتت الى نوري باي قائلة :

ـ اسمع يا صديقي ... ارجو ان تكف عن ملاحقتي .

ـ انت مخطئة . أتيت زائرا صديقي . لم أره منذ ايام .

وذهبت وحدها فسقط خائر القوة على الكرسي . قال :

ـ اعطني كأسا من الماء .

لم اقل شيئا ولا هو فعل . كلانا أرتج عليه . أطال الجلوس وهو ينظر الي كيف أعالج المرضى . لم اطلب منه أن يخرج . كان بحاجة الى ان يسلو كمن يشاهد فيلما ينسى في تتابع حوادثه همومه .

* * *

دعت زوجة زميـلي اختها : قصيرة وناعمة وفي تقاطيـع وجهها خفر . وتصدرت في الطاولة كقهرمانة في بلاط السلاطين .

كان جو المائدة جو عرس . المآكل شهيـة طيبة لـم أذق مثلها منـذ الساعة التي نعق فيها غراب الرحيل في حينا . غـادر العبوس وجه زوجة صديقي . كانت تنقل نظرة حانية بيني وبـين اختها خفيـة المغزى على كثير الهموم مثلي . وحنت رأسها الاخت فـما تأكل الا لماما تستر فمها بيدها وهي تمضغ كأنها تجيء امرا إدّا . اردت ان اقول لها شيئا . كانت تتكلم الفرنسية بطـلاقـة واحسست أني اصبت بعارض من حياء . عدت قرويا فتى خجولا ينضح جبيني عرقا اذا نظرت اليها . كدت استر فمي بيدي . امـا زميـلي فقد كان مرحا خفيف الظل اضحكهما واضحكني معهـما دون ان افهم شيئا مما يقول .

كانت زوجة صديقي كريمة ذلك اليوم منحتني مائتي ليرة .

قالت لـي :

ــ كنت اوفر من دخلك كي اترك لـك ما ييسر لك عطلـة اسبوع جيـدة . بت مـن العائلة يا احمد باي

وغمزت بعينها وابتسمت ابتسامة عريضة . كدت اطلب منها سلفـة كي ادفع اجر الفندق غير اني لمحت في عينها انها لم تبلغ من الكـرم هذا الحـد .

سألتني : لم لم تطلب مـن السلطات ان تمنحك الاقامـة الدائمـة ؟

ــ اتردد . قد ارحل قريبا ...

تشنجت اساريـر وجهها : ترحل ؟ ولمـاذا ؟ ألا تعجبـك « كوش اداسي» ؟ انها زمـردة .

ــ جميلة كفانية . أحبها كثيرا ولكن من يعلم ما يجيء بـه

الغد . قد يعصف بي الحنين الى ارض اخرى .
لم تفهم ما اعني . استدعت اختها كي تترجم بيننا .
ــ هل جننت يا احمد باي ؟ اتهت حيــاة التشرد .. بت ذا اهل ...
ــ شكرا يا سيــدتي . كرمك عظيم ، ليس مثله ... ولكني امرؤ قلّب .
ــ بنينا مستقبلنا على انك جزء منه .
ــ دعيني افكر قليلا . لا استطيع ان اعطي الان وعــدا . الوعد خطير . اذا فعلت وفيت .
استودعتهم وخرجت . شد زميــلي على يــدي . قــوي كمصارع وكذلك زوجته . اما الفتاة فقد لمست يدي لمسا كأنهــا تفر مــن كارثة . لمحت نوري باي قادما من بعيد مطــرقا ثقيــل الخطا . اومأت له بالتحيــة . لم يرني .

***

قرع خادم الفندق باب غرفتــي . تركت الكتاب وفتحت . قــال :
ــ تفتيــش !
ــ مــاذا ؟
ــ تفتيــش .

ظننت أني لم افهم في البدء . ارتجفت هلعا . كاد يخــرج القلب مــن الصدر . التفتيش ايضا ؟ قلب الاشياء اعاليها سافلها . البحث في الادراج ، تحت المخدة في الخزانة ، في الجيوب : ارفع يديك ... شيء لم : تعوده رغم أني عانيته كثيرا . يزداد خوفي منه كلما تكرر . يد المفتش عندما تمر على الصــدر والظهر واليــدين والفخذين والقدمين شبيهة بيد عزريل . لا انسى ابدا المرة الاولى.

ادخلوني الى النظارة . وقفت امام النافذة انظر الى الحياة وهي تبهـرني عبر القضبان . وقف عصفور على شجرة . اخرجت القلم ارسمه وفاجأني الرقيب . ظن اني افعل شيئا خطيرا . قال : « ارفع يديك » رفعتهما وشددت حتـى احسست ان اصابعـي تلامس النجوم وأني معلقاليها كارجوحة من اراجيح السماء. قال:

ـ لست بالوادي المقدس طوى ...

ارتفع صوته اعلى : اخلع نعليك ...

انصعت لامره . كان الجورب مثقوبا امام الابهام الايمـن الذي جحظ بعينه مستغربا . تحرك محتجا ثم هدأ خائفـا كقطـة يرقد على سرير .

ـ اخلع الجوارب ...

كانت قدماي عاريتين كأنهما تتهدان الى رحلة الشوك والدم.

قال : ماذا كنت تكتب ؟

ـ كنت ارسـم ...

ـ مـاذا ؟

ـ عصفورا طائشا يحب الشجر ...

ـ ينقـر العناقيـد ...

ـ يحب الحلوى كطفل ...

ـ لا اصدق انك كنت ترسمه ...

واخذ السجائر وعلبة الثقاب وتركني دوندخان ولا ضباب. فتـح كل شيء حولي عيونا مسعورة . واقتحم الدوار القلب ... جاء بعد قليـل . اعطاني لفافة : قال وفي عينه دمعة :

ـ انها الاوامر ... انا ايضا مراقب . اياك ان تطيل التدخين التهم اللفافة التهاما .

والتهمت اللفافة . كنت بحاجة للضباب والدخان والدوار .

ــ تفتيــش ؟
ــ نعم ...
ــ فهمت ما تعني . جاؤوا اذن مرة اخرى ...

ودخل نوري باي وقد تشعث شعره وجحظت عيناه . فلب كل شيء قال للخادم : ا ءز جا

وصافحني . لم تكــن يده كيد عزرائيل . كانت كعصفور على الشجرة . كان المسكين معلقا بين الارض والسماء . جلس عــلى الكرسي . حدق الى وجهي . كان فمه ينضح خمرا وبكى . قال :

ــ أين « جين » ؟
ــ لا ادري ...
ــ أنا صديقك . انت تخفي عني الحقيقة ...
ــ أؤكد لك .
ــ لا اصدق . انت ندي الوحيد . لولاك امتلكت قلبها .
ــ ماذا تعنــي ...
أطرق وفرق يديه : انها تحبك ...
ــ تحبني انا ؟ انها غيرتك يا نوري باي ... انت مخطىء .
ــ قالت لي : انك لطيف .
– ١ –
ــ هذا ليس حبا ...
ــ قالت انك مثقف ... قالت انك شاعر ...
ــ كل هذا لا يعني شيئا ...
ــ يعني كثيرا ... لماذا تضع يدك على وجهها وأنت تعالجها ..
ــ ولكنك تعلم أني طبيب اسنان لا يمكن أن أداوي دون أن أمس الوجه .
ــ بس دش دكتورو ... عفوا لا تؤاخذني قللت الادب ...

اين « جين » ؟
ـ لا أعلم ...
ـ أليست في الفندق هنا ؟
ـ لا أعتقد . لم أرها ...
ـ متأكد أم لا تعتقد ؟
ـ فتش الغرف ...
ـ فكرة حسنة ...

فتش الغرف جميعا وعاد الي فقال : لم أجدها . ربما كانت تخرج من الغرف التي أدخلها ثم تعود . وقد يكون صاحب الفندق عدوي . سأخرب بيته .

ـ لا تغال يا نوري باي

قال : هيا قم معي . أعرف أين هي . قم أسرع البس . هيا . هيا .

أجهل لماذا لم أرفض . كان في لهجته قوة هيمنت علي . خرجنا معا . أخذني الى ناد ليلي . كانت « جين » ترقص كأفعى حتى اذا رأتنا اكفهر وجهها .

قال لي نوري باي : سأقتلها ... سأطلبها للرقص . اذا رفضت قتلتها .

قلت : أتأذن لي بالتحدث اليها ...

فكر ثم قال : نعم ..

كأنها من محظياته وكأن له حق الوصاية عليها .

قلت لها : أرجو أن ترقصي مع نوري باي اذا طلب منك ذلك.

ـ لا أستطيع ...
ـ أرجوك ...
ـ لا أستطيع ...

ـ أرجوك ...
ـ ظننت أنك أنت الذي تريد أن تراقصني .
ـ أنا أرقص رقصات أخرى : رقصة السيف ، رقصة النار ، رقصة العذاب . فـالس سيبليوس الحزين ... رقصات ميتـة ، رقصات الموت ...
ـ أرقص معك كل هذه الرقصات ...
ـ ليس الآن . أرجو أن ترقصي مع نوري باي ...
ـ لست رجلا ...
ـ لا . أنا الآن منقذ ...
ـ ماذا تعني ؟ ...
ـ أرجو يا « جين » ... أرجو يا « جين » أن تراقصيه .
ـ كما تريد . أكرهك يا أحمد بيي .

جرّ خطواته نوري باي ووضع خده على ذراعها . كانت أطول منه . تنظر الي مـن فـوق رأسه وتقلب شفتيها . وعنف الرقص ولعبت حمياه برأس نوري باي فأخذ يهز بجذعه وردفيه وبطنه ويقلد أمهر الراقصين الزنوج . كان المسكين كبومة . وتعب نوري باي وتهدلت خطاه فانسحب من الحلبة وقعد أمامي كطلل . صفق . جاء النادل . طلب كأسين . قال :

ـ ادفع أنت ... أرد لك الدراهم غدا . شربت كثيرا هذا اليوم . لم يبق معي شيء . اسمع أحمد باي ، أريد أن أقول لك سرا خبأته عنك . أقوله لك بعد أن تبينت اخلاصك ...
ـ ماذا ؟
ـ سوف تثبت لك الايام أني أحسن صديق عندك . سأرد لك معروفك مضاعفا . أنت الـذي قربت بيني وبين « جين » . لولاك فقدتها . تسكن معنا حين تتزوج . قلت لها « أحبك » الآن

ولذلك خارت قواي . لقد ابتسمت . الا تظن أن ذلك يعني الرضى؟

ـ ولكن ما هو السر يا نوري باي ...

ـ اسمع . لقد قبلت زوجة « الدش دكتورو »

ـ قبلت بماذا ؟

ـ أن تزوجك أختها ...

ـ أنـا ؟

ـ ولكن ذلك شيء عظيم . يجب أن تطير فرحا . أنت وحيد يا أحمد باي . حن قلبي لك . حرام أن تظل هكذا ... انها فتاة عظيمة . لولا « جين » كنت تزوجتها أنا . انها أفضل الفتيات . جميلة ومهذبة . عظيمة . مثقفة . حظك عظيم . من صخر . أقسم لك ، لولا حنكتي لما قبلت أختها . أنا مؤمن أنها ستسعدك . حظك عظيم . من صخر . رفضت كل الخاطبين . أنا أعرف أنها كانت تريدني أنا . عجيب كيف قبلت بك . غـدا تلبسان الخاتمين ... عفوا ، بعد غد ... سأقدم الخاتم هدية

ـ ولكن يا نوري باي هذا مستحيل . لقد أخطأت خطأ جسيما ... مستحيل ، مستحيل . أرجو أن تنسى وأن تستخدم حنكتك فتساعدني على الانسحاب .

ـ ولكني تورطت معتمدا على فهمك ... مجنون . تريد أن تبقى تاعسا ... صداقتي لك لا تبيح لي أن أدعك هكذا ...

ـ يا نوري لست طفلا ... أنت صديقي لا وصيا علي ...

جرع الكأس دفعة واحدة وحدق الى وجهي بعين قاتل : قال :

ـ فهمت ... فهمت . لن أغفر لك ... تريد أن تتزوج من « جين » .

ـ أقسم لك يا نوري باي ... أني لا أريد « جين » ولا غير « جين » ... أنا متزوج ...

ـ كذاب ...
ـ أقسم لك ...
ـ كذاب . لو كنت متزوجا لحملت بيدك خاتما ...
ـ يا نوري باي أطبـاء الاسنان لا يلبسون خواتم لانهم يعالجون الزئبق بأيديهم وهو يأكل الذهب .

ارتخى فكه الاسفل بين مصدق ومكذب كأن اكتشف احدى العجائب على غير ما انتظار قـال : ممكن ... لكني لا أصدق . سأسأل « جين » في الرقصة المقبلة .

صدحت الموسيقى فقام اليها تتوج شفتيه ابتسامة عريضة وانحنى أمامها . تطلعت اليه وهزت برأسها أن : لا ... فألح فوقفت كذئبة وصاحت : لا ... قلت لك لا ... الف الف لا ... افـهم - لا ... أنت غبي لا ...

ابتعد عنها قليلا وأخرج مسدسه . توقفت الجوقة عن العزف وهمد الناس جميعا . ومرت لحظات ذاهلة ليست مـن الزمن . جحظت العيون في القاعـة كانـهم ينتظرون أن يسمعوا صوت الرصاص . وتراخت يدا نوري باي ورمى بالمسدس صدر « جين » فصاحت : آه ... ثم مد يده الى جيبه. أخرج شفرة حلاقة . ركضت اليه . كان أسرع مني . رمى بالشفرة أرضا وصعقت « جين » وهي تنظر الى الدم يسيل من الذراع .

وقف نوري باي يستمتع بخوف « جين » فرحا أنها ترى دمه وكل من في القاعة جامد . كان يبتسم وفي عينه سعادة صغيرة وعجيبه . ترنح فتماسك لا يريد أن يسقط ... ثم هوى . نظر الي وقال في نصف ابتسامة : بس دش دكتورو ...

جاءت سيارة نقلته الى المستشفى . قالت لي : ما أفعل ؟
قلت : لا شيء . قد يشفيه الدم ... ارحلي يا « جين » .

ذهبت الى البنك مبكرا . قال لي الموظف باشا : جاء التحويل .

عدت الى العيادة . كان الجو مكفهرا . لم يذهب زميلي الى ازمير ففهمت أن العسل انتهى . كانت « كوش أداسي » تروي أني سبب الانتحار . رأيت جين . كانت جد حزينة . قلت لها :

ـ ارسلي له وردا فقد يشفى .

ـ أخشى أن يذهب به الظن أبعد ...

ـ متى ترحلين ؟

ـ غدا ... أعتذر عما قلت لك .

أرسلت في اليوم الثاني طاقة ورد كتبت عليها « صديقتك الوفية جين » . كنت موقنا أنها لن تفعل لو الححت عليها . كانت خائفة ساهمة العينين تود أن تضع شيئا من أجله فلا تستطيع ...

مررت أمام العيادة . ناداني زميلي . قال :

ـ ألا تريد أن تأخذ شهادة حسن حال عن عملك عندي ؟

ـ لا ... شكرا ... لا أريد ...

ـ أظنها تفيدك . لن تضرك اذا لم تفدك . ومن يعلم ، قد تحتاج اليها .

ـ حسنا اعطنيها ...

جلس يكتبها وهو يبحث عن الالفاظ يشطب ويصحح وقضى على ذلك وقتا طويلا . لم يقدم فنجان القهوة رغم أني كنت اشتهيها . أخذت الشهادة وخرجت ثم فتحتها فقرأت :

أنا طبيب الاسنان ...

أشهد أن (الخذمت شي) أحمد محمد عمل عندي خمسة عشر يوما كان خلالها مثال النظافة والامانة .

التوقيع

بس دش دكتورو .

يا معلم

تعال نقف على زاوية الشارع قليلا فقد ابتعدنا عنها حتى ما تتبين لها أثرا . وعدتنا أن نعود اليها معا دائما حتى تظل ماثلة في عقولنا فلا ترعيها ذكريات عشقنا القديم والغزل الثرّ الذي أهرقنا لهفتنا على قوافيه .

لقد اقفرت كطلل جاهلي لا يقف عليه شاعر يذرف الدموع ولا عاشق يمرغ خده حيث خطرت ليلاه ... ليس فيها غير أطفال صغار يقذفون بأقدامهم كرة من الخرق ويصيحون ... تبدل كل شيء ... عهدي بالاطفال اذا مررت بهم يتوقفون عن ضجيجهم ويصيخون السمع للنبوءات العظيمة .

قلت نلتقي هناك حين حطت بك الطائرة . تركت جمع الهاتفين المصفقين الذين ذهبوا اليك لاني لم أعرف منهم أحدا . وجدتني غريبا عنهم غربتك عن نفسك لم أجد بينهم رفيقا يفهم معنى طريقي . لم يدركوا كلمة طريق لان حناجرهم الداوية وايديهم التي احترفت الدق على الطبول افرغت كل الكلمات من معانيها : الحروف الدامية ، الكلمات التي تخرج الجمر من الجماد ذوت وأصبحت بلا نسغ ... ذهبت بطيء الخطو مثقلا بألف هم وحزن وفي أعماقي قصيدة كئيبة ... ضحكوا طويلا من مشيتي الوانية . قالوا : انه يفكر ... نعم كنت أفكر ، ما زلت أفكر ... مروا بي خفافا يقفزون على حبالهم ... قيل لي أنك فرحت بهم يا معلم فأنت تطربك الفتوة القوية ...

ذهبت الى موعدنا . وجدتني وحيدا : اكليلك معلق حيث تركناه ، اهترأ غاره وشوكه على رقبة عودتك .

***

كان صباحا خاليا من التعبير عندما سمعنا نبأ نشيدك . قلنا ، بات ، اذن ، الفجر قريبا . كنا ثلاثة . ذهبنا اليك قبل أن ينبلج والظلمة عاتية ما نلسح في حناياها ومضة نور . أصبح يوما مقيتا ما تكاد تعيه ذاكرتنا . كانت طريقنا اليك يائسة تعج جنباتها بالمرض والفقر والجوع والعبودية : أنين الخلق بكّت ضمير دموعنا . عذاب البشر سفح قدرتنا على التمييز بين النبي والدعي .

كنا ثلاثة . ذهبنا نطرق بابك نضع أصابعنا في عيوننا فلا نراها . دخلنا الزقاق الطويل القديم .

كنا ثلاثة . أقحمنا أنفسنا في متاهة الضلال . قلق فتي دفعنا على الطرق المستحيلة . هممنا بحل الرموز فما وجدنا . ذهبنا نطرق بابك . قيل لنا أن لك عينين ريان وأن يدك قادرة على ازاحة السجف العتيقة التي تغلف الوجدان . قيل لنا أن الوسن رحل عن دارك فما تهجع وأنك علقت اكليلك وصليبك في محراب بيتك ، تحب الشوك والحربة ، نذرت نفسك لاحزان النهاية العظيمة ومسراتها . جئناك دون رغبة في طعنك ، ضفرنا أكاليلنا من أقسى الشوك واتيناك بلا حراب كي نحمل معك أثقال الشهادة .

كان صديقي محمد جائعا وعلي ظامىء وأنا جائع ظمآن . جئناك والجوع والظمأ .

لم يفطن محمد لجوعه . غافل أباه عامل النول وفر من البيت اليك . لم يكن لديهم غير زاد أربعة وهم ثمانية . كان الاب يعالج السدة والخيوط ساهما يجمعها فتفلت من بين أصابعه الراجفة

الوانية . كان كافرا بالرؤى الجديدة يخاف أن تمسها يد ابنه . قلنا دع الموتى يحملون أمواتهم . كان عجوزا ناشف الجلد والعظام ، يسعل داء ويبصق احتقارا . لم ينتبه لابنه وهو ينسل من البيت لانه كان يقذف دما غزيرا من رئتيه تلك الليلة . ظل صوت النول يقرع سمعنا طويلا بعد أن تجاوزنا الدار . ما زال يقرع سمعي حتى الساعة عبر كل هذه السنين .

أسرعنا اليك . قلنا غـدا يقرع النول ثماني ساعات فقط وتمتلىء الخوابي سمنا وعسلا ، ويأكل فراخ أبي محمد الستة حتى التخمة ويرمون ما فاض عـن مائدتهم لسباع الطير . لم نصـغ السمع لنصحه ، فقد ألف الجوع ورضي بالسهر واعتادت أضلاعه الثياب المهترئة . ظلم نفسه وأردنا أن نجابه طغيانه ، أن نرفض الرضى ، عزمنا على أن نزلزل العالم كي يأكل ويلبس ويرقد بعد العشاء . تعلمنا منه كيف يحوك الخيوط فجئنا اليك ننسج معك الاسطورة .

***

طاف علي أرض الينابيع ولكن أحدا لم يسقه جرعة ماء وما ينعت يـده حتى يرتشف براحيته . كان طلعة يستوقف كل من ابتلت قدماه بجدول . كان عاشق كتب وحبر وينابيع يهيم بالاسرار والاعماق يريد الوصول الى الحقيقة . قال لي : بليت عيناي من التحديق بالورق . هيا بنا الى الانسان .

قيل لنا أن يدك ينبوع سخي يغدق الري والبركة .

***

خالنا حارس الليل ثلاثة من اللصوص يزرعون الليل معصية.

قال لنا : « قفوا » . فوقفنا .

ــ الى أين ؟

فأشرنا بأصابعنا ناحية بيتك . فـفهم وضرب جدار الزقاق

بعصاه فارتج ومال ، ثم فتل شاربه ، تلفت يمينا ويسارا وأشار قائلا : « من هنا » . واقترب يقول لنا همسا : « أنا معكم أيضا ». وابتعد سعيدا ذلـك أن الرقم في صعود . عرف أننا مثله ظماء جائعون وآن حجارة الزقاق بدأت تعي خطو السابلة الجدد الذين يجيئون قبل الفجر ، كيما يطلع الفجر .

يلم النعاس بعيني الحارس الليلي عندما لا يعنيه اللصوص . ما كان ليلتئذ يحب النوم . كان يقظان ، أحب سكان الحي وهم بالذود عن رزقهم . كان فارسا بلا جواد يمنّي النفس بغزو وطراد.

***

ضللنا سبيلنا في الزقاق مرة أخرى . كان عامل البستان عائدا من سقاية أرضه يحمل « مجرفته » على كتفه . استوقفه قلبي يسأل عن سر الظمأ والري ، عن المياه والينابيع . كانت أرضنا جافة يا معلم . يبست موانئنا فلا سفين ولا شراع ولا مرساة عاشقة . كان الخلق في ذهول . كنا نسأل كثيرا . نرود كل الاحزان .

قال له علي : الى أين ؟

ــ زوجتي على انتظار .

ــ هل تحب النساء ؟

ــ والاطفال ، والشيوخ أيضا ، والمردة الذين لم يولدوا والقصائد الـتي ما غنتهـا الشفاه ، والشوكة والجدول والتربة العصية على المحراث ... والخصب .

ــ تحب الخصب ؟

أنزل مجرفته عن كتفه وحدق بالليل والسواد وجدار الزقاق ويديه الكثيفتين كمرض عضـال ، وقدميه الحافيتين المضرجتين بالعناء كلعنة اله..

ــ أحب الجدب ، انه أنا .

ــ اعطني جرعة ماء . أنا ظمآن .
ــ أحب الظمأ الكافر والجوع اللئيم . انه أنا .
ــ جفّت شفتاي ، أريد أن اشرب .
ــ جفّ العالم فلا قطرة ندى . لا رحمة ولا حنان . جفّ الله .
ــ ولكني ظمآن .
ــ اظمأ ..! اظمأ حتى ينبجس الدم من رئتيك . اظمأ حتى الموت .
ــ أنت قادم من الجدول والماء . ألم تحمل معك جرعة في قدحك ؟
ــ الارض جافة لم تدع نقطة من الجدول الا وبصقتها بوجه السماء .

لم يتبينا جيدا . ظن اننا ارواح من الجن ترود البشر بين نصف الليل والفجر جاءت تقطع عليه طريق العودة ، تقف بينه وبين فراش البؤس والنسيان .

كان الجنون يمرع في أعماقنا يدفعنا عن أن ندفن البؤس في فراش النسيان .

***

حكايتي أنا طويلة يا معلم . لم أروها لك من قبل . جمعتها على طرف وجداني . خبأتها للموعد العظيم كي تكون آية من آياته .

أريد أن أصف لك بيت جارنا .
قالت لي أمي : جارنا مريض وأخرس .
قلت لها : قولي له أن يتكلم .
ــ يا بني ولد أخرس العقل واللسان والعين كي لا يعي ولا

ينطق ولا يرى !

ـ أماه ، معذب من يعي وينطق ويرى . قولي لي : أنـا منذ جئت ؟

ـ أنت ما جئت بعد . احذر أن تعي أو تنطق أو ترى . جارنا مريض .

ـ متى اذن أجيء يا أماه ؟

ـ عندما يموت جارنا وينتهي الشقاء .

ـ تحل عقدة الكلمة وينتهي الشقاء .

ذهبت معها كائنين من القتلة . ليس القاتل من ذبح . انـه الشقي الذي يحمل كفن الشقاء كي يجعل العالم سعيدا . باتت لا تحمل قدماها أثقالها . كانتا تنوءان تحت سبعين عاما وهموم وفراق وجسد واهن كبيت عنكبوت .

كان ذلك في العام الذي طرق فيه البؤس بابنا . لم يكن في بيتنا غير ضالين في متاهة يهومان في حنايـا الماضـي والحاضر والمستقبل وهما ينتظران أن تبيض دجاجة فيأكلا أوتموء قطة على جدار مؤذنة بالخير أو سائلا نأنس به ونقاسمه جوعنا أو تزهر عوسجة الياسمين فيذهب الشقاء .

قبعنا أمدا كالابد ننهش فيـه السخر والضحك ، نضرب بكفينا : كفا على كف على الفخذين والركبتين ، نضغط بهما على الخواصر ، يهتز الجذع الى أمام ووراء وعلى الجانبين ونحن نقهقه لنكتة بارعة حتى يطفر الدمع من مآقينا ، حتى ينبجس ، حتى يسح فاذا بنا نبكي ضحكا وسخرا .

ـ من أين جاءه المرض ذلك العيي على الحزن والفرح ؟

ـ ابنه يتكلم ...

ـــ من اين للابن الاخرس ان يتكلم ؟ لماذا لم يدعوه للصمت الابدي ؟ لو قصصنا لسانه أما كان يبل أبوه ؟

ـــ لم يطيقوا أخرسين في حي واحد . كان لا بد من ان يقول شيئا ...

ـــ ماذا قال ؟

ـــ « هلم نلحد بهذا العالم الاخرس » ... تلك أولى كلماته، بدأ النطق كافرا ...

ـــ كان ينبغي أن يدفنه دون أن يقول شيئا ...

ـــ لا يستطيع العيي أن يحفر قبرا .

ـــ قبرا أخرس ... قبرا للخرسان ...

ـــ لا يموت الاخرس ... كل القبور فصيحة .

أعطيتها يدي فاتكأت عليها . تحبو ورائي كأنهــا ظلي أجره حيث تسعى بي عصا الترحال . كانت قدمها غــير قادرة على أن تسير بها وحيدة . أقعدها خوفا . أن قلقي يغزل لي كلماتي الاولى.

قيد خطوات مــن بيتنا مقبرة فغرت شدقها منذ ما حملت الامهات ، أغرتهن بالحب والحمل والاطفال واستلقت على التلعة الصغيرة التي تحجب دارنا عن العالم كأنها حدوده الميتة ، قبعت بلا حراك ، تشققت سحنتها قبورا حفرتهــا معاول البائسين كي تأوي الذين لا وطن لهم .

قلت للعجوز : لنعبر طريقا أخرى . أنا أحب الحياة . اكره القصائد التي حفرت على حجارة الموتى .

ـــ كيف تدرك سر الحياة اذا لم تعبر بالموتى ؟

ـــ حشد كبير من الحجارة الرعناء ، كأنه البشرية كلها . لو مررنا بها جميعا لقضينا سحابة يومنا ... ومن يدري فقد نقضي سحابة عمرنا بين العظام البالية ... ترهبني الجماجم المجردة من

الجلد والمخ والعقل ...
ـ أنا أعرف أن الطريق من المقبرة حتى بيت الاخرس طويلة، كلها سراديب عقيمة ولكنها الطريق الوحيدة .
ـ تزعمين انه جارنا ؟
ـ نعم ولكن بعده ناجم عن أننا لا نصل اليه الا عبر الموت.. اذا كنت تحب ان تسعف الاكمة والاخرس والاصم مت من جذور اعصابـــك .
ـ ما لنا ولهذه الرحلة ؟
ـ انه بائس ومريض وجار له علينا حق الزيارة والود ...
ـ ولكني اكره الموتى ...
ـ انت لا تختار الطرق ... تدق علـــى بابها وتسير عليهـــا شئت أم لم تشأ .
ـ ولكني فتى قلق اكره المسافة والزمن .
ـ وأنا أمك . لن تتركني هنا وحيدة . فالدار مخيفة . لـــو كنت وحدك لقفزت الطريق اليه قفزا ولكنك لا تستطيع ان تذهب دوني . حمـــلتك وارضعتك وانا ضعيفة خائفة .
ـ تتشبثين بي كأنك هذه الارض .
ـ مـــن قال اني لست الارض ؟ من قال ان الارض ليست امنا ؟ أنت لا شيء اذا لم تنتسب اليها ... عمق جذورك على قدر آلامها ... لن تسير على السبل ما لم تملأ الألام قلبك ووعيـــك ولهفة اعصابك الى النور .
ـ أنا في عجلة من أمري ... أريد ان أراه وانتهي .
ـ لـــن تراه اذا لم أكـــن معك . يجب ان ادلك على عقدة لسانه واحزانه .
ـ ملأت عالمي ألما وصورا حزينة . أنا فتى اريد ان استمتع بشبابي .

لم تسمع ما قلت . أتكأت على يدي وذهبنا .

اختلطت علي الأمور في المقبرة يا معلم . بت لا أميز بين أمي والمقبرة والأرض : من منها ولدني ؟... الى أي منها أنتسب ؟ كلها ميت كأن الحياة رحلت عن ديارنا .

كانت المقبرة عجيبة تسرع بالحفر المعدة للقادمين كأن البشر يهيئون منذ ولادتهم قبورهم ... الموت في كل مكان ... لا افهم لماذا يموت الاطفال . كل صباح اطل من باب الدار فأرى جدثا صغيرا محمولاً على يدين . قتله الوهن حتى لكأن أهله يلقون به الى المقبرة منذ ما يتنفس ، يخنقوه بأصابع العوزوالسماء الجافة والارض الظمأى... الغلال بخيلة يا معلم والأسمال لا تستر عورات العذارى والعيون الزانية تفضح البكارة ، تسمل عيون الذين يرون ، يقطع اللسان الفصيح ، تصم آذان من يسمعون ... العيون الزانية كثيرة تملأ الفجاج ، تسد كل الدروب .

لو كنت معي آنئذ يا معلم لعرفت لماذا جئت اليك ... هنا قبر عمي الذي مات مسلولا ، قبر عمتي التي ماتت بالهيضة ، قبر اخي الذي مات بالسعال الديكي ... قبر أبي الذي مات حافي القدمين ، مدينا ، فقيرا مسلول الامل ، مهيض الاحلام والطموح.

لو لم تكن معي العجوز لرميت نفسي في حفرة ، لطميت التراب على رأسي واستجرت بالدود ان يأكل لحمي والعظم حتى القلب . كنت شرها للزوال لا اريد ان ارى دمار العروق على الجلد الجاف الواهن حتى الوقاحة .

أخذت ابصق على القصائد المحفورة على القبور فسدت العجوز فمي بمنديلها .

قالت : لا تبصق ، اما يكفي الموتى كل هذا الصديد ؟

كل الذين اعرفهم ماتوا ... ماتوا قبل ان اعرفهم ... عرفتهم وهم موتى ... ظننتهم احياء . ما كان ذلك غير يقظة ميت قصيرة .

ما لنا وللفبور . الذكرى ما زالت في عيني لا تريم البؤيؤ ولا الغلب . أيان ذهبت . حيثما حللت لا أرى غير الموت .

وجدنا الاخرس ميتا . وصلنا متأخرين ومن يعلم فقد يكون مات قبل ان نبدأ رحلتنا . همّ بأن يقول شيئا ما ، آخر اشيائه . حل البؤس عقدة لسانه فمات على اول حروف الكلمة كأن الارض كافرة تدفن الذين يتكلمون ... وجدناه متشنجا عقاله حده ، طال شعر ذقنه لانه نسي ان يحلقها ذلكاليوم وارتخى فكه غير ان لسانه كان عالقا في قبة الحنك . قلت لابنه : ماذا ورثت عنه ؟ وآنا اعرف انه ما كان يملك شيئا .

أشار الى لسانه ولم يحر جوابا ... ورث عن ابيه الخرس.. الخرس فقط يا معلم . اريد ان اصف لك بيت جارنا . كان بلا باب . لم يخش اللصوص لانه ما كان يملك شيئا ولكنهم دخلوا مع ذلك داره في الظلام وسرقوا اللاشيء . في فنائه بئر عليها داو يجف صيفا ويندى شتاء ، ينسرب الى قاعه الوباء من كل عروق الارض ، وبيتان صغيران يقطن احدهما ويقطن الثاني جحشه . الجدران من لبن رقيق تهتز اذا عصفت الريح . مات جارنا الاخرس على الارض يفصله عنها حصيرة ووسادة وفراش رقيق ، رقيق . نزعنا عن لحافه ستاره ولففناه به واخذناه الى اقرب الحفر فرميناه بها كزجاجة سكّير فارغة واخترنا لحجر قبره قصيدة خرساء .

كان موته اكبر حدث في قريتنا ، صمت بعدها الخلق ،فما يقولون شيئا . داء الخرس عم البرّية . عندما مرض ابنه ذهب الى السراي . اخذ يصرخ في الساحة ويعول ويشير . فهم البشر كلهم

ما يريد كأنه خطيب فصيح وتجمعوا حوله . صاحوا معه واعولوا حتى فرقتهم سياط البوليس وظل هو يعول وحيدا غير ان احدا لم يفهم ما يعني بعد ان انفض عنه اهل القرية وغاب عنا فما يعرف احد عنه شيئا . ظننا انهم اخذوه الى حيث لا يستطيع الاخرس ان يعول او يصيح وعاد بعد زمن طويل الى بيته مشلول الطاقة على العويل والصيـاح وبقيت كلمة وحيـدة تجمجم في اعماقه منـذ اصيب بالخرس يلوكها بين لسانه وقبة الحنك يفسرها على البوح فتفسره على الصمت . وغادر الارض قبل ان تولد حروفها .كانت تعني عنده كل شيء ، الحياة والموت .

قلت ابحث عنها فقد اجدها في مكان ما لان الكلمة التـي تقتل ، تحيي وتميت لا بد وان تعيش على الارض ، لا يمكن ان تبلـى ..

* * *

كنـا ثلاثة اغدق علينـا البؤس كل شقائه وسمعنا انـك تصنع بيديك صليبك ، تضفر بهما شوك اكليلك . قلنا ان الكلمة لديك وان فجر المعجزات دنا ، فجئناك عاريـن عن الزيف والغرور ملفعين بالاحزان والعثار .

لم نكن ارواحا من الجن ، لم نشأ ان نقطع طريـق العودة على عامل البستان ، استوقفناه كي نمنحه ما يحمله معه الى فراش البؤس والنسيان لعل زوجه واطفاله يفيقون على فجرك فيجدون فيه زادا طيبا فلا يبصقون بوجه السماء .

لم يكن معنا شيء فعزمنا على ان نمحه ذاتنا ، ان نبدأ عندك ومعك العطاء . قلنا لعله يدلنـا على بيتك فقد كان اكثرنا شقاء .

قال : لا ترددوا فقط . اذهبوا تصلون اليه . طريق العطاء واحـدة .

* * *

وذهبنــا فضللنا . ما اهتدينا أبدا وبحثنا عــن دليل . كنا نوجس مــن موعد في الزاوية اذا ما آذن لا نجد غير الفراغ .
كان الزقاق طويلا والليل دامسا : أجفل المؤذن لما رآنا . لم تكن ساعة صلاة ولا اذان . جاء الجامع فارا مــن بيته لعل التهجد ينسيه ابنه الكسيح . منذ سنين طويلة يجيء عند نصف الليل لعله يرى الفجر من على المئذنة حتى اذا وافاه اصيب بالعمه فلا يرى فينبهه المصلون الى ان وقت الصلاة حان فيصيــح : الله اكبــر . قضى عمــره وهو انتظار الفجــر غير انه كان اعمى على النــور والحنين يستبــد به اليــه حتى لقد يئس منــه فانتهى الى ان آمــن ان الشمس لا تطلع دون نذير يفك عقال النور . لما رآنا وفي احداقنا شرر الاطفال ظــن نذيره قد جاء فقال :
ــ مــن انتــم ؟
ــ ايــن المعلــم ؟
ــ ظننتكم بشيرا بالفجــر ...
ــ نحــن ذاهبون الى البشير ... أيــن المعلم ؟
ــ الذي يتحدث عنه فقراء الحي ...
ــ والحزانى والمساكين ، والشعراء والفرسان والملحمة ...
ــ قيل لي انه ينذر بدنو الفجر .
ــ والعاصفة والرعد والبرق والصاعقة ...
ــ وأؤذن يومئذ واصلي ...؟
ــ يومئذ فقط تؤذن وتصلي ... يستجيب لك العصاة مــن اعمــاق كفرهم وتحول الخطيئة فضيلة مباركة .
ــ أي عصاة ؟ اية خطيئة ؟ أيــة فضيلة ؟
ــ العصاة الذيــن طردوا مــن المحراب ... الخطيئة التــي همّت بأن تكون قدوة ... الفضيلة التي قدّت من كفر ...
ــ لا أفهم ...

ــ صلاتهم بريئة ، خطيئتهم صلاتهم .. فضيلتهم انهم كفروا بما ليس هو بريء .

ــ ولكــن متــى ؟
ــ عنــد ما يكبــر الاطفال ...
ــ كلهم كسيــح ...
ــ سوف يقفون على اقدامهم .
ــ من ليس كسيحا اخرس .
ــ سوف ينطقون ..
ــ واذا لم يقفوا أو يتكلموا ...؟
ــ سوف يقفون ... سوف ينطقون ..
ــ أعالج ابني منذ سنين ، لم يقف .
ــ قل له ان يأتي معنا .
ــ قلــت انه كسيــح ...
ــ عندما يجيء معنا يسير ...
ــ اذهبوا اذن وخذوه معكم ...
ــ نمــرّ به غدا ... سنمر بكثيرين .. أين بيت المعلم ؟
ــ في العطفة التي الى اليمين ...

تركناه وهو ينظر الينا شاكا ودخلنا الدار خاشعين فرأيناك تقيم طقوس الصلاة الجديدة . سألناك : ما هي الكلمة ؟
قلت : الانسان ...

ما كنا نظــن ان تقول هذه الكلمة نفسها فهي قريبة دانية ، نواجهها كل يوم بين ايدينا ، غير انا خلنــا ، زينّ لنا ايماننا الغر ، انك قلتها بحرارة وخشوع فأدركنا معانيها الاخرى وخشعنا معك وانضممنا الى صلاتك وجأرنا باصواتنا حتى نفهمها كما تفهمها انت وبطل علينــا القها مثلما يطل عليك .

قلت لنا : ان الصلاة لا تجدي ما لم تكن جماعة واننا لن نقيم صلاة الفجر ما لم يجأر معنا كل الجائعين والظامئين والخرسان والكسحاء .

كانت لهفتنا الى النور اعتى من طاقتنا على الانتظار وهمسنا فخرجنا من لدنك خفافا كي ندعو رفاق الظمأ والجوع . قلت موعدنا على زاوية الشارع التي يلتقي عندها المتعبون فيتفيأون الظل ويشدون بعض على ايدي بعض كي تتسرب قوة الامل الجديد في ادق ذرات نفوسهم ، ثم يتفرقون وقد اصبحوا خلقا جديدا الى مطارح الشقاء كي يبعثوا الموتى من رقاد القبور . وودعناك فباركتنا .

ثم عدنا اليك مرات كثيرة . كنا نختار دائما الساعة التي يقترب فيها الفجر . لم نره ابدا . كنا نحترق هياما بالنور وما من نور . الظلمة تشتد : سواد في سواد .

وافترقنا كل على درب ما دامت الدروب تلتقي جميعا على الزاوية . وطرقت بابك بعد اعوام وحيدا وقد اكل الشوك راحتي وقدمي والخواء امعائي وقواي . كنت ـ كما أوصيتنا ـ اطرق الابواب فتفتح . لم يجب احد. قلت لعلك على زاوية الشارع فذهبت اليها في حشد عظيم من الذين تركوا ابوابهم مشرعة للعاصفة ونهدوا معي الى دروب الشوك والعناء . قلت لهم : هيا بنا . آن ان نلتقي جميعا . انه هناك حيث موعدنا ...

لم يخب حدسي . وجدناك تعلق اكليلك وصليبك فنثرنا عليهما الطيب والمجد .

قلت لهم : انا على حق . الان تبدأ الرحلة العظيمة الى ارض الينابيع .

حرت بأمرهم . همد توترهم وهم يحضرون الاحتفال المقدس . كانت يدك وانية . لم تكن على قد النبوءات والاناشيد ثم تفرقنا لان الذين تواعدنا معهم لم يأتوا جميعا . قد تكون شكوك المؤذن هي التي دفعت كثيرين للتلكؤ . كان علي ومحمد اشدنا قلقا ، اقلنا طاقة على الانتظار .

احترفنا في غيبتنا كل الحرف فانتهيت انا الى الحرف وانتهى محمد للسوط وعلي للمهماز واحبا ان تقترب مواعيدنا فأخذا يعدوان وراء الانسان فجاء بكل العبيد الى الزاوية .قلبت كل الوجوه والاجساد . رأيت آثار المهماز والسوط ولكني لم أر الانسان . تلفت الى حيث الاكليل والصليب لعلي اجدك فأسألك مرة اخرى : « اين هي الكلمة ؟» لم اجد احدا .

ذهبت ابحث عنك ، مرة اخرى وحيدا . قال لي الحارس الليلي : « قف » . فوقفت .

ـــ الى اين ؟

ـــ ابحث عنه ...

ـــ الطريق مسدودة والمزار قفر .

ـــ الاخرس على انتظاره ...

ـــ والكسيح والبائسون على رقبة عودته . غير انه لن يعود . كسرت قدماه . لا قدرة له على السير. انه النعاس والنسيان

لم اصدق الحارس . كان الوقت قريبا من الفجر . ربما ألم الكرى بعينيه .

قلت : له : خدعك النعاس .

ـــ بل اليقظة الدائمة والخوف العجيب .

ـــ دلني على بيته .

ـــ ما تفعل هناك ؟

ـ ادعوه الى حيث اكليله وصليبه .

ـ الصليب خشب اهترأ والاكليل لا يخدش رأساً اذا طال به الزمن على الجدار . لو رأيت رأسه الان ، مضمخة بالعنبر . اغدقوا الطيب على شعره . لو رأيته ما عرفته . انه فرح بهم حتى السعادة . يباركهم كل مساء ، كل صباح ... باتت يده للبركة فقط .

ـ لقد طلع اذن الفجر دون ان اراه .

ـ لقد طال بهم ترقب الفجر فصنعوا فجرا خليا يبهر الانظار ، يكاد يكون حقيقيا حتى لتظن ان وراءه الشمس رغم الظلام الاسود .

ـ اقول لك دلني على بيته ...

ـ انا لست دليلا ، انا رقيب ... اذهب الى هناك . الى تلك الهضبة ـ وأشار بعصاه ـ تجد كل الذين مررت بهم ليلة رأيتك في هذا الزقاق .

ـ اجد المؤذن ؟ انا مشوق اليه .

ـ وعامل البستان ...

ـ والحائك ؟

ـ والاخرس والكسيح .

ـ اذهب اولا الى بيته ...

ـ رحل عنه منذ زمن بعيد ولو وجدته لما قال شيئا ،اصيب بالخرس والكساح . اذهب الى هناك ... الى الهضبة . آمرك بالذهاب اليها . أنا مكلف بذلك .

ـ خذني انت . لا اقدر على السير وحيدا . انا خائف .

ـ الخوف يضلنا معا وقد تفر . قد تتعب انت او اتعب انا ويلم بعيني احدنا النعاس .

فالطريق صاعدة صعبة لا تحتمل وعثاءها قدمان .

ـ ما افعل اذن ؟

وضع سلسلته في يدي وصعدنا نلهث مكدودين كطريدين من ملكوت الله . كان اكثر مني عناء اجهدته الطريق حتى انهمرت الدموع على خدّه . كدت اسأله « لماذا » غير انه عض على شفته وقطب حاجبيه . قلت له : « فهمت » .

قال : لن تفهم ...

كل الذين عرفناهم معا كانوا في مهجع واحد يسيل الدم من افواههم وعيونهم حتى ما يتفوهون ولا ينطقون وعلي يلهو بسوطه ومحمد بمهمازه .

قلت للحارس : ولكن اين المعلم ؟

قال : يبحث عن الكلمة ...

ـ ولكنه وجدها ...
ـ لم يقلها غير مرة وحيدة
ـ ما حل به بعد ؟
ـ انه من الانبياء العجزة . اصابه الخرس والكساح .
قم يا معلم ....

رسالة الى مادونا

مادونا يا عصيّ احزاني .

يظنون يا مادونا انك جسد بشري استمتع بروائه وعطاياه ، لدن تقاطيعه ومنحه ما لا يمنح ... انك الفحشاء ورعونة موتور من شح ماضيه وتجاعيد وجهه وقلبه ، نهد جائع الغرائز الى سرير الخامسة والعشرين كي يلغ في الاثم حتى تبيض عينا نهمه ويودع الارض وحشه المسعور ، ريّان الظفر والناب والظمأ .

يجهلون ... وكيف يعلمون وقد انسدل على بصيرتهم سجف عاهر جعل الدنيا بعينهم وحلا وخطيئة ودعارة ... يجهلون يا مادونا انك سر نشيدي ونبع صلواتي .

يجهلون يا مادونا اني عازف قيثار شجي الصوت ، عابد ارفل في مسرات صلاة شقية ... حياتي صلاة وجد طويلة ، أبد عميق تلم به بصيرتي ولو ان النظر حسير .

يظنون يا مادونا اني عاشق متاع ، اخو سلطة وثروة . يجهلون اني اشرعت يدي للريح ، فتحت كفي على مصراعيه كباب ولد قبل الرتاج ... بسطت يدي كل البسط واعطيت حتى العروق لاني اريد ان آخذ حتى العروق ... ان آخذ العالم كله حتى اعماق البحار ، حتى سرمد النجوم .

من لا يأخذ لا يعطي يا مادونا ، وانا لا يوهنني اخذ ولا

يعييني عطاء . امنح روحي كلها ... آخذ كالريح ؛ اعطي كالريح ... آخذ العالم كله كي اعطي العالم كله .

تقولين : لمن ؟.. للذين لا يأخذون ولا يعطون ... آخذ واعطي لاني قادر على الاخذ والعطاء ... آخذ واعطي كي ابدد ... لاني عاشق اصيل علمته عيناك ان الحياة مسرة منح ... يا لعينيك والأهداب : بحر ازرق ذو اغوار ، شاطىء قدّ من غابة .

انا عاشق سخي الوجيب والاحتراق . لكم احترق يا مادونا ... كأني على كومة حطب تستعر ... كأني قضى الله ان احترق دائما فلا يبلى الجسد ولا العظم ؛ اظل احترق دون موت ... ذلك اني احبّ حتى الدوار الموسوم بالالق وروعة الرؤيا .

تلك غربتي العجيبة ... ذلك شقائي الغريب .

* *

كنت في أوج الفرح ... في غبطة عابد وجد نفسه وحيدا في معبد ، وحيدا وملائكة الله ...

كادت الدموع تهم بان تطفر من عيني ... ما احسن الدموع التي ترود الجفن كرحمة الرب ! لماذا شاء الله ان تجفّ عيناي كأنه يريد ان الجأ الى رحابه كسنديانة بلا نسغ ، على اهبة السقوط ؟

كان القلب ينتفض طائش الوجيب ؛ واهن الحذر ... بت في الديار . جمجمت باجمل حروف لأحلى قصيدة ... الجبل امامي ... الجبل الذي سفحت على عوسجه معصيتي واغدقت على فوديه اغانيّ . وعى فانصت ، هو والحقب وسعي الفتى الذي كنت على شوكه وصخره ... راجعني هواي وغواياتي فناداني الخفير في مطار بيروت .

قال : ألست الذي يختلس غفلة الرقيب كي يجوس في ارض

الوطن كرجس ؟

ـ كأنك عرفتني فانكرتني ... تريد جواز سفري ؟ انظر جيدا ... انا من الصعاليك ... ماتت عشيرتي ، لانتا نبذنا فنبذتنا العشائر ... لم يبق منا سواي .. ما زلت جاهلي النسب والهوى ، الم" بمضارب القبائل كوهم ، انجو كخفق جناح . لكني في هذا العصر مكسور السهم والقوس ، مشلول القدمين ، لا اعدو كمهر نبيل ، لا انجرد كومضة لطراد او رفد ... يئس البشر في وعثائهم من النخوة فما من مقيل لعثرة ، مع اني ما زلت حيا .. اظل تهيم خطاي من مطار الى زنزانة ومن زنزانة الى منفى ابحث عن ربع حرية فما اجد غير صحارى جرداء ... اهيم وحيدا كالحب .

كانت لحظة نشوة كتلك التي بشر بها الصوفيون . غير انها سوداء ، لا تسرع بذهول الحس ورؤيا الانوار ، لا تسرب في الحس كخدر ... سوداء تقضم الاعصاب وتجهض التفاؤل .

من اين جاءني التفاؤل يا مادونا ؟ كان ذلك ضعف من يتنكر لايمانه . نحن الصعاليك بأس مردة . لم يبق منا احد لان الرفض مات . قضى في غزوة هزيلة الرايات موسومة بعهر الطواحين الهوائية وجنوح فرسانها للسلطة . مات الغضب في شهقة ذليلة الصدر .

هممنا بأن ننقذ الموتى من الموت ، غير انا وجدنا العالم قديما سد" النوم كل منافذه على الحياة . جئناه بررة عصاة لكن الرحى كانت عاتية ، طحنتنا في سعيها الثقيل الرتيب ... وبقيت انا كي ابعث تقاليدهم .

اراود حدود الوطن عن نفسها فتدفعني مفاتنها كبكر مهرها صعب ... اذهب واعود في خفة لص وعنت فارس . انهزم

اذا ضاء جمالها ، ثم يزكو عشقي فأرتد ، فيشرع الرقيب والحارس السهام كخصاة حرفتهم ان يذبوا عن الحرم فلا تمس حريره وعبق عطره اصابع مجنون الهوى ... اضل اجوس حدود الوطن لاني بت بلا وطن . كل الحدود مغلقة ، ضيف مؤقت اني حللت كأني اخون تقاليدنا ، فالصعاليك سادة حيث حلوا ... نفرتهم الحدود ، لانهم رفضوا ... رفضوا كل الشرائع .

ــ ألست الذي ...؟

ــ نعم انا الذي استحل ما لا يحل . انا الذي تهرق اصابعه الدمع والدم اذا لامست تربة الوطن ... انا الذي اركع اذا شممت التراب والياسمين ، انا الذي اسجد عندما يلوح لي جبل لوحي .. انا الذي احس ان الله يتقبل ركوعي وسجودي في ملكوته لانـي لم اركع ابدا ... لم اسجد لصنم .

ــ تستحل ما لا يحل ؟

ــ نعم ، حدود هذا الوطن . لماذا اقمتم بيني وبينه الحدود ؟ ألم يجئك نبأي ؟

ــ الانباء كثيرة كفرت بها . كسرت المذياع . صوت الببغاء كريه . احرقها الناس في الوطن . لو انهم يجيزون دخولك لوجدت البشر يضعون في اذانهم وقرا . يستمعون فقط الى اغاني الحرمان، والشوق الى ساعة غضب .

ــ نبأي ليس مثله ، كدرة ، كصحوة بلبل غريد . أؤمن بوحدة هذا الشعب . لماذا تضحك ؟ ليست وحدة مطربة مغناج تغمز بعينها ولا راقصة تهز البطن والارداف ولا اوراق مشغوفة بان يملأها الافك . تتألق على اسطورتها اعماقي. أؤمن بها كالانسان لانه لا يكمل الا بها .

ـ تتكلم كخارج على القانون ...
ـ لانها قبل القوانين وبعد القوانين ... هل بات على ارضنا قانون ؟

نعم ... مكتوب على الف ورقة قلب كغانية . همه ان يصغر الانسان . كلما شب هذا نبدل ذاك . نلهو به كما نلهو بفراش زانية .

ـ ذاك نبأ عظيم لم اسمع به ولم اقرأه .
ـ لها عنه المذيع باخبار الظفر والمجد .
ـ والهزيمة ؟
ـ نسيناها ... ولكن لم تكن هناك هزيمة ...

ثم همس في اذني : اسكت ... انس كل شيء .. امسح اولا من ذاكرتك النبأ العظيم .

ـ لكنه اقوى من النسيان ، اعند من ان تفقده الذاكرة : هو عندي كوحدة الاكوان ، كانوار الازل . تشرق منه انسانيتي يمنحني الحرف والتمرد ...
ـ عجيب امرك ما دمت هكذا غبيا كيف خدعتني ؟
ـ انا لا اخدع لو اني ذو حيلة لما اوقفتني فسألتني ...
ـ عوقبت لما مررت هنا في الشهر الماضي متخفيا بعشرة ايام : سجن وحسم راتب .
ـ لو اني احتال واختفي لكنت الذي اوقفك وحسم راتبك .
ـ عشرة ايام من اكل اطفالي ... اجلس في هذه الزاوية . هات الجواز .
ـ وتظنها طويلة ؟ عشرة ايام ؟ ما اعجب الرقم ! يمتد حينا حتى ليبدو ازلا ... يتقلص حتى ليزحم الصفر في صغاره .. ماذا تقول في ثلاث سنين ؟ اظنها لا تعني عندك شيئا . اعوامي عندك

صفر ... نعم ثلاثة اعوام ... شب فيها الاطفال . باتوا كبارا . اطفالي انا ، ابناء الرفض والصعاليك .. لولا شق في قميص ابني البالي ، تراءت عبره شامة من عنبر الارث ، ما عرفته . صار يحلق ذقنه ويعدو وراء الجميلات ... ينظم الشعر . في عينه وميض فتى من الاساطير . يغزل بؤبؤه قصائد الشوق والنزوات الطائشة. يعرف الاحزان واللهفة والحرمان . يروي لي حكاياته الصغيرة ... تثرثر كشابين ولدا في فصل واحد : الربيع ! أخبيء عنه انـي ولدت في الشتاء والثلج والزمهرير ، اخشى عليه الشتاء والثلج والزمهرير ... كم اود لو انه من غير سلالة الصعاليك لانه ابني، مع اني احب الا تلد ارضنا غير الصعاليك ... انانية النسل .

* *

لم يدرك ما اقول . للرقيب لغة اخرى ... لا يدركون في وطني ما اقول يا مادونا ...

باتوا جميعا رقباء وظللت وحدي من الصعاليك . رقيب وسجين ذلك هو وطني . مشقتي اني بت لا اطيق السجن . وهن الجسد يا مادونا واشتعل الرأس شيبا وما تظنين فتوة فتى ، ليس سوى رعشات اخيرة احتفظ بها المعشق والصلوات .

جهدت في ان اكون رقيبا فتلظيت على الشوك . ما استطعت ان اكونه ، اعماقي احترقت . كان علي ان اختار احد السبيلين وزين لي امل خلب اني يمكن أن اختار سبيلا ثالثة ما دامت كل الطرق تجر الى الهزيمة والعذاب ... لم اجد في وطني غير دربين ضيقين كصراط احد من السيف ، ارفع من الشعرة وانا يأخذني الدوار على دروب الجحيم لاني اسير حافي القدمين ، مجردا عن الزيف والعار ، عاريا من كل حلية الا احزاني وعشقي ... ماتت الفجاج في وطني ... وجب علي ان انتزع

قدمي ، ان اسير على قدمين اخريين ... كيف ينتزع الانسان قدمه؟ كيف يسير على قدم مستعارة ؟ كيف يمشي من لا تتسع له الفجاج ويصطفق ترابها لخطوه ؟ نحن العشاق نرقص حين نسير ، تراب الوطن يسكرنا . في ذراته اكسير من الله ، يحملنا على جناح نشوة سماوية الى آماد الملأ الاعلى .

وجدتني غريبا لان الفجاج ماتت يا مادونا ...

وجدتني عجيبا يفغر الشارع شدقيه اذا رآني . يحدجني المقهى كأصم ابكم . بتنا عيِّين على اللقاء ، كأننا اصبحنا بلا شوق، لا نثرثر ولا يهمس أحدنا في اذن الاخر . اجلس على الكرسي ، اجده باردا كقطب . تبدلت سريرتنا على وهج الشمس ولفح الزمهرير وموت الدروب والاعصاب . انه البعد يا مادونا منفى كل العواطف العظيمة .

« اللجة تبتلع الجسد والذاكرة الاسم » . هوغو . البشر ينسون الغرقى ... لم ينسني الشارع ولا المقهى ولا طولة الزهر ، غير ان طبيعتها تبدلت ، تبلدت كمخدر . الاضطهاد يفل حد السيف حتى ولو كان دمشقي المعدن .

انكر الشارع والمقهى ما حفره الفراق في وجهي كوشم ينسبني الى عشيرة المنفى والصعالك . لم يعرفني غير الخفير لان عقوبة عشرة ايام هصرت ثلث راتبه ، ثلث خبز اطفاله ... كان في عينه الرثاء والتردد وانت تعرفين كم ادرك سر العيون ونجواها، حذرها وحزمها وكيف ينعكس ظل حوارها الخفي على امائر الوجه . ارتخى فكه قليلا وهو يعاتبني . كان يعاني حرج الكريم الضعيف . ايمنحني جوع اطفاله فانجو بنفسي الى دروب الارض الطيبة ولو انها ارفع من الشعرة واحد من السيف ؟

لا تستهيني بتردده يا مادونا ، انه تاريخي ...

وطني كله بملايينه المائة يعاني نفس حرجه لانه واقف على هاوية ... كل الكلمات ، كل العواطف ، الثورات والحروب ليست غير تردد مسكين ... انها المرحلة المخيفة التي يتشبث فيها الوليد ببطـن امه وهو يهم بالخروج الى العالم . كل مخاض كاذب في وطني . لا يولد فيه غير الموت . مات الحزم والعزم في غير فزاع الخصوم . السوط والجدران العالية وبق الزنزانة قتلت الشهامة . رأيت جثتها بعيني. كان نزعها مرّا وعنيدا ، جمّ الدموع والعويل والدم ... لكم تشبثت بالحياة . كان يمكن ان تعيش لولا ان الموت حقيقة راعبة لم تدع على ارضنا غير سجن ورقيب ووشاة . مات الفرسان جميعا في غزوة دفنها التاريخ في رمال داعرة ... منذ زمن بعيد ... بعد امي عن عيني .

مرحلة الموت تسم الخلق بميسمها حتى لكأنهم نسخ صورة واحدة : قافلة غريبة لا نميز فيها الحادي مـن الفارس والراعي . شذّ عـن القطيع كثيرون غير ان المرحلة بدلت سريرتهم . كـل البدايات رائعة اما النهايات فبائسة ومضحكة . كل ما على ارضنا يزول سريعا الا الذاكرة . لا تفقدها ابدا الشعوب المستذلـة اذا فقدت الرجولة والكرامة . انها آخر وسائل الدفاع عن النفس . تزداد الالام فتحفـر على صخرة الحياة ما لا يمحى .

النيات الطيبة تنهار كتمثيل مهرج . تجيىء الحكومات وتقوم الدول ، فنهلل كمن اتاه قادم من الغيب . ثم ... تقرير من هنا ، وشاية مـن هناك ، سوط من هنا ، زنزانة من هناك ، قانون من هنا ، دستور من هناك ... وتستمـر القافلة في موتها الرتيـب .. ما ابخل الغيب يا مادونا ...!

كان حلما طائشا ذلك الذي رأيت منـذ زمن قريب ، حلما من احلام طواحين الهواء . زيّن لي النوم وغفلة من العـذاب اذ

الغار ولد في وطني من جديد . كان هزيلا فقير الدم . قلت لعلها الولادة . لعله المخاض ... نسيت ان وطني عاجز عن المخاض لان الموتى لا يلدون ، يجهضون فقط. لكني تشبثت بالغار، وضعته في الزجاج ما دام شيئا نادرا. جربت فيه فنون الطب لعله يعيش، لكنه اهترأ في انائه لانه لم يجد رأسا يرصعه بالمجد ... مات الفرسان في وطني . لم يبق لنا غير خفق نعالهم ، يردده التاريخ والليالي القاتمة الرعناء . نقعـد نحن العشاق ، كلما انتصف الليل نصغي لخطوهم الثقيل حتى لنحس راياتهم بين ايدينا وننتظر الفجر ... شمسنـا تطلع دون فجر . ايامنا يجهضها نصف الليل ... محرقة عاتية تقتلع جماجمنا ، تعصر الدماغ حتى العته. مات الغزو ، لم يبق غير خفق النعال ...

**

عجيبة حكايات المنفى : نزع عميق كامواج البحر ، موجـة اثر موجة . كل منها يلتهم بعضا من حياتي واظل احيـا للعذاب والشوق .

ويهيم بي الدوار فيأخذني الى افاق ما وعاها الضمير ... اغدو القا يزهو بانواره ، ثم ارتد الى الارض فاذا بي غريب الدار يتنكر لي اديمها والشارع والمقهى ...

قصصت لك بعضا مـن نبأ جلال الدين ، رغم اني لا امت له بنسب او قربى ، اجده هادئا صافي الانوار ، لم يحترق ابدا . كان وجده يضيء ... كيف يضيء من لا يحترق ؟ انه سر جـلال الديـن .

اشرع نفسه لغمرة الفيض بعيدا عن الخلق . ادار ظهـره للانسان . يجيئه المشوقون كفراش اجتذبته مشكـاة . يرددون نشيـده ، يقلدون هيامـه ، ينعمون بظليل انواره كسابلـة في صحراء ، يضنيهم وهج الشمس ولمعان الرمال ... جئته اخا وهج

ورمال وبيد . نقرت كفي على دف المثنوي ايقاع من اسكره موشح صوفي ، غير انه لم يعلمني سوى الدوار . اظل ادور في الفراغ لا اقف ولا اسقطه لا يغمى علي ولا اصحو ... يداي معلقتان على الفضاء واللاشيء ، ابحث عن الانسان ... اين ذهب ؟ اي تيه ابتلعه ؟ اية موجة اخذته الى اغوارها ؟ اية رمال دفنته ؟ ادور حتى الدوار يا مادونا كي اجد الانسان ...

نعم لقد ذهب الانسان لان دروب الشعرة القاتلة ضيقة على خطوه ولم يبدل قدميه ... لكم كان غبيا ... اظنه مات وان موته كان ذليلا . لم تنكس له راية ، لم يبكه احد . مات دون دموع بل دون جنازة . لم اعثر على رمسه مع ان وطني رموس ذل وعويل .

جئت جلال الدين مخنوق اللهاث ، على جبيني شوك المنفى وفي اعماقي حنين عين عمياء للنور . لم توطىء لي رحابه جناح نشيده ولا وسّع لي بين حلقات اذكاره . كنت احترق وهو يضيء وشتان بين اللهب والالق .

لماذا احدثك عن جلال الدين يا مادونا ؟ لماذا يرود خيالي مع اني لا امت لشيعته ولا انتميت لانواره ؟ لماذا افكر فيه كثيرا ؟ لماذا افكر بالصوفيين ؟ لم لا افكر بسواهم ؟ اردد قصائدهم امام البحر وهو يهدر صاخبا كتنين ... هذا البحر يوقظني مرات كل ليلة ، كدقات ساعة بلهاء ، تطرق سمع نومي فانهض كمسعور واسعى اليه كمن ضرب موعدا مع غانية على شاطىء .

البحر والقلق ينتزعان النوم من عيني كأني موكل بالسهر ، كأنهما يعرفان اني اعيش على انتظار الفجر ... كنت اجهل سخر البحر وانه يغار من النعاس ، ينتزعه من العين بالف حيلة بارعة .

عهدي بالقلق ساخر لئيم ... اما البحر ؟... لا بد انه تعلم السخر في منفاه الابدي . كلاهما يعرف غبائي ، يعرف انـي انتظر الفجر .

بالامس ايقظني القلق مرة والبحر مرات ، ثم ايقظاني معا في الساعة التي يجب ان يطلع فيها الفجر . شهدت آخر ايام القمر . يشبهه الشاعر بقلامة ظفر . كان يتدلى من مشنقة النجوم اصفر النزع . كدت اسمع آخر وجيب قلبه . حملته نجمتان . دفنتاه وراء الافق ... ثم مات العالم جميعا دون غسق ... كانت ساعة فارغة وملأى ، سفح الذهول على دقاتها وهن الصمت فما اسمع الا خفق الصمت . ثم حجبت الافق سحابة اجهل من اين جاءت ... من اين تجيء الغيوم في ايار ؟ وبدا البحر بين شاطئه وافقه اناء صغيرا في مقاييس اللانهاية . وانسدل حجاب الظلمة . لولا نجوم تتعثر على درب الانطفاء ، تخبو نجمة اثر نجمة كان اله الليل ينفخ على ذبالاتها لفحات قاتلة ... واسود كل شيء . اعماقي كانت سوداء ... كنت جامدا كقصبة ينفخ فيها الصمت فتردد صداه . كنت شفاف السواد تأتيني الظلمة من المجهول فتتسرب عبر روحي في الكل...وانحطم فيّ شيء لم ادرك كنهه كأن قلبي انهصر الى قلبين ... وانهدم البحر كما تنهدم الجبال ... رأيت قاعه واصدافه واتصل بالسماء فباتت بحرا وبات سماء وعمت الحلكة ... عميت الحياة والجماد ، كل شيء الا بصيرتي .

اصبح الفجر اذن قريبا . تلك هي اللحظة التي يطلع فيها الفجر . اشرعت اعماقي وروحي ، حياتي كلها ، بؤسي كله، احلامي ورؤاي ... تفاءلت ، نعم تفاءلت كشاعر ابله نظم اول شطر لاجمل قصائده وخانه الشطر الثاني ... وطلعت الشمس فجأة كي تحرق لا لتنير . طلعت دون فجر ... انا لا فجر لي يا مادونا ... احترق ... احترق فقط .

ذهبت الى البحر عامر القلب بسؤال مـن نعمى الغبطـة وعدت اطأ الرمال ، كأنها تطأنـي . كل من يمشـي على الـرمال يحدودب ظهره كمن ينوء باثقال جنازة ... اشارت الي فتاة على شرفة الفندق فاغرق صديقها واغرقت بالضحك . هؤلاء السواح هم بشريـة القرن العشرين يبدلون لون جلدهم على لفح الشمس وتبقى اعمـاقهم بلا اعماق . حق للبشر ان يضحكوا مني جميعا يا مادونا . غدوت غريبا عنهم الى الابد .

مادونا لقد رأيت ... مغاليق السر تفتحت لعين بصيرتي ... اقسم لك يا مادونا بالعين الزرقاء والغرة الشهباء ، بالجسد الذي منحه الله للفن كي يكون اخلد تمثال ، اني رأيت ... اود لو اقول لك ماذا رأيت ولكني اجهل ، كابله عصي على الفهم كنه رؤاي ... بت عشقا كلي يا مادونا ... حياتي عشق مجنون ، عشق اسود ... ولكنه عشق يرى ...

كانت لحظتي سوداء كعين ابنتي.. ما احلى العيون السوداء، كنز الغزالة ... كانت لحظة مبللة بالدموع كعين ابنتي ... من اين جاءت دموع الظلمة ؟ لا بد انها غيمة ايار ... كنت حزينا ،كنتفي اوج الغبطة . رأيت السر وكأنـي لم ار شيئا .. بقيـت حزينا .. ما زلت حزينـا يا مادونا ... الاحزان تسد سبل النور يا مادونا .

اقبع امام صورتك اتأملها ، علّ معانيها تبدلت . كل شيء تبدل ... صرت اجلو المعاني التي ما جلاهـا الشعـراء ، افتتـن واجلجل كناقوس قرية في طوفان .

بت اثيريـة الملامح كوهم حمـله الغيب في نشوة حب مـع الازل وجئت الارض كي تكون هنالك سعادة ولكنك وهـم يا مادونا ... كل جميل وهم ... كل جمال وهم ...

افكر ايضا بجلال الدين .. اغانيه تفضح كتمان الحييّ ، تبوح بما عف خلقه عن ذكره ... كان يهيم بصورة من لحم ودم يجلو عبر فتنتها ملامح الازل . تتسامق روحه على معانيها ، شفَّت في حسه ودقت حتى لنحار بين حسه وظنه ، بين ما هو جسد وما هو اشراق بين لمس الاصابع والوهم . كانت رؤاه من نور لفّع دنياه بنعماه حتى ليضلّ الّقه عيوننا فما نفرّق بين غذاء الارض والروح وعلى اي معراج سما الى ملأه .

لماذا رأيت كل شيء اسود ؟ منحني الله آية جمال ما منحها سواي . بدعة بديع خلقه ... صافية انت ككوثره ... رائعة كمرمر جنة... جعلك معراجا الى النور ... كأني جاحد بكرمه ... ولكنك وهم يا مادونا ... لماذا كل هذا الوهم ...؟

ادار جلال الدين ظهره للانسان ، شغله الكل عنه حتى لنسي حقيقته وبؤسه ، وحملقت بمأساته ... نحن في هذا العصر نرى خلل الانسان . لا نرى سواه ، مشدودون بسريرتنا الى سريرته .

لم يولد مثلي جلال الدين في حي متعب شقي الاسمال يغمى على اطفاله جوعا في قاعة الدرس ، يطبق الموت فيه عين الوليد لان الدواء اغلى من الانسان . الدواء ثمين في حيّنا يا مادونا ...

ماتت ام جارنا « علي » دون دواء فداخله هوس الزجاجات التي تتربع متعجرفة كاكسير الحياة على رفوف الصيدلية . كنا اذا ذهبت عصابتنا لسرقة البساتين فافتقدناه وجدناه يتأمل امام الصيدلية . حين كبرنا قبض عليه وهو يسرقها . لم يجد محاميا . كان دفاعه انه اخرج من محفظته العتيقة وصفة الطبيب لامه . كانت آخر ذكرى لها . ولكنه سجن مع ذلك لان لصوص الدواء هم اخطر اللصوص على هذه الارض .

هذا الحي يضطهدني كسادي ، يطاردني ، منفاي الحقيقي - يظل في عيني ، جدرانه التي تسقط لبنة بعد لبنة تعني عندي ان العالم قديم وانه زائل لبنة أثر لبنة : انه دنياي الحقيقية .

نشأ ابن الفارض نشأتي وأضلته خمرة الازل عن الانسان ... هو عنده جذوة نور تصعد فتتحد بالله وعندي مكدود مغلول اليد والقدم ، خبا بصيص الحياة في عينه وقلبه ، قادر على شيء وحيد : ان يأكل اذا وجد الطعام وان يموت عندما يجده الموت . رأيته في وطني كما كان عندما تركته ، قابضا على معوله ، يحفر قبره دون ان يعترض على الموت ، لا نور فيه ولا حدس .

ما كان يقول ابن الفارض، شاعر الحنين ، لو ان عظامه خلعت الفناء وقام من جدثه على نداء سائق اظعان خافت ؟... اما كان يتغير حنينه ، اما كانت اشواق الاعالي النورانية وهيامه بالافاق البعيدة وقادم منها على راحة النور ، اما كان يغدو كل ذلك تمزق موتور يحجب عنه النور وكل احلام الملأ الاعلى ...؟

اما كان يرفض رفض الحلاّج ؟ اما كان يقطّع جلده قطعة قطعة ؟ اما كانت توقد له نار مثل ناره حتى يحترق العظم نفسه ؟

اما كانت توقد النار لجلال الدين سيد القبول ؟ اما كان يغدو سيد الرفض لو انه ولد في نفس الحي الذي ولدت فيه ؟

العشاق توقد لهم النار التي تأكلهم او يلمع النور الذي يتألقون على بريقه منذ يولدون ، منذ يكونون نطفة في رحم . حيهم يختار لهم النار والنور ... منذ ولدت وانا احترق يا مادونا ... داعب ظني امل خلبّ في ان يسعد الحي وحين انقطع بلغت الذروة مأساتي ... سنوات ثلاث ما كف الجلاد عن تقطيع

جلدي حتى القلب وانا سعيـد اني ادفع ثمن الولادة النادرة ، ولادة الذين اختارهم الله لعذاب عظيم .. انها مسرة عاشـق لا تعيب عـن بصيرته ديار الحبيبة البعيدة يا مادونا ...

الهو بالعـذاب كطفل مغرور الطموح ... وجدني ضـالا فهداني ، اعانيه منذ اجل موغل طي طفولتي كالابد . ازمة خفيـة مخيفة تقرض اعصابي ، تلسع وجداني كل يوم الف مرة .

كنت اجدني دائما على مفترق طريقـين ، كلاهما يغرينـي كشهوة جسد . ثم جئت يا مادونا فكنت طريقا عجيبة خطها القدر مـن ضباب قوس قزحي الالوان ، اغراني باغان جديدة اسلست لها قياد اوتاري حتى لقد ظننت ان الحي تبـدل ... قلـت ربما استيقظت فيه الحياة على قرع الطبول التي تملأ ارضنا . غـير اني كلما اطبقت عيني رأيت الجدران تتهدم والعياء يركع علـى قلب اطفاله ، ويعاودني قتام الرؤى فارتعش كمحمـوم يريـد ان ينسف العالم كي يموت الموتى والموت .

يوم سجن صديقي لص الدواء كنت فرحا وكنت حزينا ... حزينـا لان العالم ما زال بعد كمـا هو ، لان رفاقي لا يأكلـون اذا جاعوا ... فرحا كسادي لان معقدا كشف لي عن سر جديد : ان الحرمان عصيـان يستبيـح كسر الاقفال ، يجيز شريعة غـير الشرائع ، ينسجها مـن عالم آخر ، له قوانينه الغريبـة عن عقل الزجاجات التي لا تطالها يد محروم .

كنت شامتا بصديقي لانه جاء الصيدلية وحيدا ، خائفـا يسترق الخطى . لم يكـن بتار الناب كذئب . لم يجيء في جحفل مـن العصاة الذيـن يضعون قريبا من القلب وصفـة ام ماتت عطشى دواء مع انهم عديـد لا يحصى . قلت ما دمت اكثر حذقا

وايمانا بالالم فلاشحذ ناب الذين يكسرون الاقفال لعلهم ينسفون الموت من ديارنا .

جاءني بعد ان خرج من السجن وقد ازرى به بعدنا .

قلت له : كـــن معنا ...

كان على عهدي به ساخرا كئيبا . قال : لستم احدا ...

ثرت وعصفت فقد ملأنا في غيبته الشعاب .

ثم زارني وانا سجين وزم بشفتيه كأنه يهم ببصقة . قـــال لي : لستم احدا ...

ــ ولهذا سرقت ؟

ــ كلهم سرقوا ... صغار العصاة لصوص . عصيانهم انهم لم يقبض عليهم بالجرم المشهود .

* *

كنت بين شريعتين : التأكيـــد علـــى القوانين اذا مكـــنا لها انتظم المجتمع وشريعة لاجيء في خيمة يخط قوانينها بسله وموت اطفالـــه .

كنت انام واصحو على الدم ينبجس من الرئات واوتاد مبعثرة على ارضنـــا .

تدق الطبول ويهـــزج العصاة الصغار باغانـــي الظفر حتى لنخالهم ايقظوا التاريخ مـــن هجعة الانهيار ، ويأتي البؤساء وعلى ظهورهم خيام جاد بها المتفضلون مـــن فتات موائدهم ، فيطرقون ... يطرقون الاوتاد حتى تنغرز وتغوص معها النخوة في التـــراب ... ملأت الخيام حينا ... كلما طرب دعي فصاح هادر الصوت جاءتنا خيام جديدة . حدسي يزيـــن لي وقائع كثيرة ان بيت

الحساس العظيم والخيام صلة نسب ... اعداد الهزيمة من العظمة في وطني .

من يطيق قرع المطرقة والوتد والسل ؟ وقعها الكئيب يبتدع لمن يصيخ السمع شريعته .

ماذا اذن شريعة الرفض ام شريعة القبول ؟

ظننت حينا انهما ربما تلتقيان ، ربما تؤدي كل منهما الى سعادة الانسان ولكن الشرط الاول كيما تسود تلك ان يوجد الانسان . وما دام لم يولد بعد ، رفضت القبول ورفضت الرفض.

* *

جاء يوم انتفخت فيه كطاووس وذهبت الى الحي العتيق في حرس وحاشية . ظننته انتفخ معي وبات ذا حرس وحاشية ايضا ... كنت مخطئا يا مادونا . بات ذا حرس فقط يطبقون فمه على انينه التاريخي .

جاءني العم اسماعيل ذلك الذي كان يضحك كثيرا كلما غضب ابي ... كان ابي دائم الغضب لان جدران حيه تتهدم مع الزمن لبنة اثر لبنة . كان غبارها حارا وداميا يوجع عينيه ... كان انتحاره عجيبا، بدأه ساعة بدأ وعيه همّ بالموت غير ان تدينه دفعه عن ان يفعل وكأني به احتال على ايمانه .. الذين يموتون بالجلطة هم منتحرون يا مادونا يحدقون بالمأساة فيخفق القلب ، يحدقون فيعلو وجيبه ويضطرب نظام الحياة فيه ، يغدو كفارس مهزوم يجفل على كل انة يرتعش على كل نزع ... يحدقون في توتر الهم والقهر حتى ينطفىء القلب ... العينان ، عينا من يرى سكين قاتلة .

جاءني العم اسماعيل فرحا ساخرا . فرحا اني بتّ جميلا كطاووس ، ساخرا ان الريش على جماله مستعار ، ذهبت كل

الوانها على لفح حرارة اللبن المتساقط والغبار الذي يعمي العيون.

سألني ، وهو يفتل لفيفة سوداء التبغ : كم تقيم بيننا ؟

قلت : ليلة او بعض ليلة .

قال : والقهوة والنار ؟ ما زال في الدار حطب ...

ـ دعوه اني عائد ...

ـ ملت نارنا الانتظار .

وذهبت ثم عدت ... كانت الرياح عاتية في ديارنا طوحت بي كل مطوح، اخذتني الى مدائن كثيرة . رأيت كثيرا. عشت كثيرا. رأيت كأعمى . عشت كميت . ورجعت الى السجن : المحطة الوحيدة على طرقي جميعا ، تنيخ فيها قافلتي لأني على موعد دائم والعذاب .

وعدت الى القرية . جاءني العم اسماعيل كشبح من اشباح الليل لا تتبدل صورته ، يضحك ويفتل لفيفته .

قال : هل نوقد الحطب ؟

ـ ما زال في بيتنا حطب ؟

ـ بلى ...

واوقدنا النار ، تجمعنا حولها كأننا بقية تقاليد القرية ، كأننا من فرسان القرون البائدة لولا ان رماحنا بليت وهرمت خيولنا . بتنا راجلين ولا طاقة لنا على المسير . عجنا على حكاياتنا ، على قصص البطولة . كانت باهتة لا حرارة الراوي توقظ خدرها ولا ابتساماتنا التي قسرنا عليها الشفاه ... وشربنا القهوة . ما كان مذاقها طيبا ولا تلمظ بها اللسان . وران الصمت وتسمرت العيون على الخواء وسقطت لبنة اخرى تحت اقدام الريح وثار العجاج وضحك العم اسماعيل دون ان يغضب احد لان الذين يغضبون

ماتوا ... بات الضحك عنده عادة . يضحك كلما ملأ الغبار عينيه .

ما الأم الساعة التـــي يحس فيها الانســـان بخواء الاشياء . يصبح قصبة تهزل بها الريح فيظن البعيد ان عازف مزمار اشرعه لحداء نصف الليل .

وايقظنـــا الرقيب من سبات الصمت فتسمرت احداقنا على الخواء . ظن ، وتلك عنده جريمة ، انا هممنا بان نوقظ الموتى ، ولقد هممنا غير انا وجدنا حين مست شفاهنا اول فنجان من القهوة اننا نمثل مهزلة مرة . عندما تموت الفجـــاج يا مادونا ، تدمـــى الاقدام حتى عروق القلب على اول خطوة .

كان العم اسماعيل يتشبث بي دائما ، يلح على ان ابقى في القرية كي لا يموت الكانون والحطب والقهوة في دارنا ولكـــم احب ان انفذ وصاياه . طلب فنجانا آخر . صببته ومددته اليه . كانت يدي راجفة . تعلقت هي والفنجان على الخواء وانا انتظـــر ان ينتهي مـــن فتل لفيفته . اطال ويدي معلقة كظل مشنوق . تبغه اسود وضحكه ابيض . لحس الورق بلسانه واشعل اللفيفة مـــن نار الكانون ونفث الدخان في وجه الخواء والقـــدر حتـــى غلف الضباب الخارج من رئتيه كل الخواء ، كل القدر. وتناول الفنجان ثم سألني : متى ترحل عنا ...؟

وضحك حتى انقلب عـــلى قفاه . طلب فنجانا آخر . العـــم اسماعيل يحب القهوة مع الدخان ، يمنحانه نشوة هادئة تغدو معها الحيـــاة نكتة تلخص قدرا في كلمتين . ضحك وقهقه حتى انسبلت دموع الضحك على خديه غزيرة كلؤلؤ من اعماق بحر الخواء ...

خرجت امي الينا . قالت له : لماذا تضحك هكذا ، قطعت صلاتـــي ...

ـ نحـن في صلاة يا ام هذا المجنون ... بطنك معتوه ... ارضعه ثديك هوس الاساطير ...

ـ ولكنكم قعود : ما هكذا تؤتى الصلاة ...

ـ نحن نصلي يا ام المجنون ... نعم نصلي يا ام المجنون ... نصلي معه صلاة موقظ الموتى .

ثم قهقه كأبله وانسبلت ايضا الدموع .

قال : ذكرت اباك . قال لي : « ابني نادر ... » فضحكت فغضب وصاح . ثار لأني كشفت له عن الحقيقة التي يخبئها عن نفسه : كان يدرك ان الموهبة جريمة وعذاب . لذلك اقول لك اذهب . انت تنتحر مثله . لا احب ان احمل للعاهرة منتحرين ... واشار بيده الى القبور .

مقبرة قريتنا عاهر يا مادونا تضاجع الاب والابن والاخت والبنت في قبر واحد ، مولعة بالمنتحرين ، تهتك كل الاستار ، يأكل دودها خفر الصبية وخجل الشيخ .

احب العم اسماعيل. لست اخالفه في امر : سمعا وطاعة يا عم اسماعيل . هاءنذا رحلت . قال لي الاطباء الا خشية على القلب ، غير طبيب يفحصه من العين انذرني اني من المنتحرين دون ان ادرك . يا عم اسماعيل ، اخشى ان اموت في ارض بعيدة . اموت كل يوم في ارض بعيدة ...

دود وطني حرام علي يا مادونا . سوف اتفسخ في ارض اخرى . انا بخيل على بقاياي ... كم انا مشوق للدود العجيب ، كم اود لو يأكل جسدي وكل افكاري ، كل طموحي وآمالي . الكلمات التي قلتها والتي ما قلتها بعد . القصائد التي خبأتها وما قرأها سواي ، فني ورؤاي واشواقي ، سهري على الكلمة اجمجم

بها ، واوشيها كبسملة خطاط تقي ... اشيائي الحلوة كلها تهيم حنينا للدود النهم ، للمقبرة العاهرة ...

طاب مساؤك يا عم اسماعيل في هذا الليل الذي تحتقن فيه عروق عيني قلقا .

* *

حملت متاعي ورحلت ، بل لم احمل غير ذاتي وأملا عظيما بأن تتبدل الاشياء . حملت معي اليأس والتفاؤل ، ريشتي وافكاري واماني الحي البائس في ان نوقظ الموتى ... كل وطني بائس : المقهى والشارع والبشر ... شيعتني العيون الذليلة ... ما اكثر العيون الذليله في وطني يا مادونا ...

كان لا بد من الرحيل . فقد بتّ غريبا على ارض الهزيمة لانها ليست وطني بل ليست وطنا ... انها وطن المهزومين في اعماقهم وقد تحصنت بدرع كثيف يعميها عن الوحل والعار . يزعمون ان غد الثأر قريب غير ان الذين يثأرون ماتوا ... المستذلون لا يدعون الملحمة . الذين يذلون ملحمتهم طاحون هواء ...

صحت من اعماقي ، كتبت من دمي لعل بقية الشرف تصحو من سباتها ولكن احدا لم يسمع .. بل لقد سمعوا ، غير ان وقر الآذان يحيل الصرخة دغدغة تهدهد وسن العيون .

لم يجرؤ احد ان يقول لم الهزيمة . مجدهم محاولة ستر .

كم جهدت في ان اسكت وما افعل ، مصير الصعاليك ان تخلعهم العشائر ... لو لم اكن الخليع الوحيد ما كان يكون صوتي هكذا شجيا .

من اين جاءني التفاؤل اخيرا يا مادونا ؟ هل هو الحنين ؟ نعم انه الحنين اذا نزف بدّل الرؤيا ...

استغفر اليأس ... استغفره حتى الندم ... انه يغير طبائع البشر يا مادونا ... تصبح معه الحياة معلقة بالوهم : بخبر قد تسمعه ، بقادم قد يجيء ... تشف معه الروح حتى ليلامس صوت احبائي سمعي يرودون احلامي حتى ليراهم ذهني وعيني، يوقظونني من نومي حتى اذا هجعت ارتعشت فارقني حر انفاسهم ... اقد حالوا قلقا وعرا يا مادونا ...

هذا الترقب جعلني متطيرا . اذا رأيت وجها جميلا عند الصباح ظننت ان العالم سيتغير . اذا رأيت وجها بشعا تشاءمت رغم ان القدر يندرج واندرج معه لاهيا عن القباحة والجمال .

كل يوم عند الفجر اسأل المجهول : ما سيحدث اليوم ؟ اخرج ورق اللعب انضّده على الطاولة لعله يعينني على اكتناه الغيب : لعبة تعلمتها في السجن ، لم تفارقني كأشياء السجن الاخرى . احدق بالورق فاذهل عن الزمن . الورق يكذب في غالب الاحيان . تنجح اللعبة فاصغي لعل القادم العجيب يطرق بابي حتى اذا ابطأ لجأت الى الزهر فحدفته ... دائما ايكي بير ... الزهر راعب في صدقه . صرت اخافه . فضلت خداع الورق . خبأته حيث لا تطاله يدي واكرهت ذاكرتي على نسيانه ...

ذات صباح قمت للورق . نجحت اللعبة نجاحا باهرا . وكررت حتى تعبت ... جاءتني اخبار جديدة . ظننته صدق، فرحت حتى الوجد ، وهممت بالزهر ، بحثت طويلا حتى وجدته . وضعته بيدي ، خضخضته جذلا وحدفته طربا في عزم المتفائل ، اصطدم بالسقف وسقط على الارض ... ايكي بير ... كنت اذن واهما وهمي بوجودك .

الزهر صادق يا مادونا ... اقسم لك يا مادونا انه ايكي بير ...

الفهرس

الثمن : ليرة لبنانية او ما يعادلها